

تَفْسِيرُ الْمَرْأَةِ الْغَمِيَّةِ

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقاً

الجزء السابع عشر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء السابع عشر

سورة الأنبياء

هي مكية وآياتها اثنتا عشرة ومائة .

أخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال : « بنو إسرائيل والكهف وعريم وطه والأنبياء هم من العتاق الأول وهم من تلادى » .

وعن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه الرجل فقال : إني استقطعت رسول الله وأديا ما في ديار العرب وأد أفضل منه ، وقد أردت أن أقطع إليك قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك ، فقال عامر : لا حاجة لي في قطعك ، نزلت اليوم سورة أذهبتنا عن الدنيا ، يريد هذه السورة .

ومناسبتها لما قبلها .

أن السورة السالفة ختمت بأن الناس قد شغلهم زهرة الدنيا التي جعلها الله لهم فتنة ، وأن الله نهى رسوله أن يتطلع إليها ، وأمره بالصلاة والصبر عليها ، وأن العاقبة للمتقين - وبدئت هذه السورة بمثل ما ختمت به السالفة ، فذكر فيها أن الناس غافلون عن الساعة والحساب ، وأنهم إذا سمعوا القرآن استمعوه وهم لاعبون ، وقلوبهم لاهية عنه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ
 مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً
 قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ؟
 أَفْتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ
 بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ
 مِنْ قَرْنٍ أَهْلَكَنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) .

شرح المفردات

اقترَبَ وقرب بمعنى ، والمراد من اقتراب الحساب اقتراب زمانه : وعموميء
 الساعة ، والناس : هم الكافرون ، معرضون : أى عن التأهب لهذا اليوم ، من ذكر :
 أى قرآن ، محدث : أى جديد إنزاله ، يلعبون : أى يسخرون ويستهزئون ، لاهية قلوبهم :
 أى غافلة قلوبهم عن ذكر الله ، النجوى : التناجى ، والمراد أنهم أخفوا تناجيهم
 ولم يتناجوا بمرأى من غيرهم ، أضغاث أحلام : أى تخاليط أحلام رآها فى النوم ،
 افتراه : اختلقه من تلقاء نفسه ، بل : كلمة تذكر للانتقال من غرض إلى آخر
 ولا تذكر فى القرآن إلا على هذا الوجه كما قال ابن مالك وسبقه إليه صاحب الوسيط
 ووافقه ابن الحاجب وهو الحق .

الإيضاح

(اقرب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) أى دنا حساب الناس على أعمالهم التى عملوها فى دنياهم ، وعلى النعم التى أنعمها عليهم ربهم فى أجسامهم وعقولهم ومطاعمهم ومشاربهم ، ماذا عملوا فيها ؟ هل أطاعوه فيها فانتبهوا إلى أمره ونهييه ؟ أو عصوه فخالفوا أمره فيها ، وهم فى هذه الحياة فى غفلة عما يفعل الله بهم يوم القيامة ، ومن ثم تركوا الفكر والاستعداد لهذا اليوم والتأهب له ، جهلا منهم بما هم لاقوه حينئذ من عظيم البلاء وشديد الأهوال ؛ وأثر بيان اقتراب هذا اليوم مع أن الكلام مع المشركين المنكرين للبعث ، للإشارة إلى أن البعث لاريب فيه ، وأن الذى يرجى بيانه ذكر ما يستتبعه من الأحوال والأهوال كالحساب الموجب للاضطراب على وجه أكيد ونهيج شديد .

وخلاصة ذلك — إنه قد دنا وقت الساعة وهم غافلون عن حسابهم ، ساهون لا يفكرون فى عاقبتهم ، مع أن قضية العقل تقضى بحزماء الحسن والسيء ، وإذا هم تنبهوا من غفلتهم بما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا عنه وسدوا أسماعهم عن سماعه .

ثم ذكر ما يدل على غفلتهم وإعراضهم بقوله :

(ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم) أى ما ينزل الله من قرآن ويذكرهم به ويعظمهم إلا استمعوه وهم لاهون لاعبون مشتهزون .
والخلاصة — إنه ما جدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً وكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلمهم بتعظون ، إلا زادهم ذلك سخرية واستهزاء .
وفى هذا ذم لأولئك الكفار وزجر لغيرهم عن مثله ، فالانتفاع بما يسمع لا يكون إلا بما يرجع إلى القلب من تدبر وتفكير ، وإلا حصل مجرد الاستماع الذى تشارك البهيمة فيه الإنسان .

وبعد أن ذكر ما يظهورونه حين الاستماع من التأهب واللعب ، ذكر ما يخفونه بقوله :
 (وأسرّوا النجوى الذين ظلموا) أى وأسّر هؤلاء الذين اقتربت الساعة منهم
 وهم فى غفلتهم معرضون - التناجى بينهم وأخفوه عن سواهم .
 ثم بين ما تناجوا به فقال :

(هل هذا إلا بشر مثلكم ؟) أى قالوا فى تناجيهم متعجبين من دعواه النبوة
 هل هذا الذى آتاكم بهذا الذكر إلا بشر مثلكم فى خاتمه وأخلاقه ، يأكل كما
 تأكلون ، ويشرب كما تشربون ، ويموت كما تموتون ، فكيف يختص دونكم بالرسالة ؟
 (أفأتأتون السحر وأنتم تبصرون) أى ما هذا الذى أتى به مما لا تقدرون عليه
 إلا سحر لا حقيقة له ، فكيف تعلمون ذلك ثم تدعون له وتتبعونه وتحببون دعوته .
 وخلاصة ذلك — إنهم طعنوا فى نبوته بأمرين :

(١) إن الرسول لا يكون إلا ملكا .

(٢) إن الذى يظهر على يديه من قبيل السحر .

وإنما أسروا ذلك ، لأنه كالتشاور بينهم والتحاوّر لطلب الطريق الموصول إلى
 هدم دينه ، وقد جرت عادة المتشاورين فى خطب عظيم ألا يشركوا أعداءهم
 فى مشورتهم ، بل يجتهدون فى طي سرهم عنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا كما جاء
 فى حكمهم : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .
 فأجابهم عليه السلام عما قالوا :

(قال ربي يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم) أى قال لهم
 الرسول صلى الله عليه وسلم : إنكم وإن أخفيتم قولكم وطعنكم فىّ ، فإن ربكم عليم
 بذلك وإنه معاقبكم عليه ، وهو السميع لجميع السموعات ، العليم بجميع المعلومات .
 وفى هذا من الوعيد والتهديد ما لا يخفى .

وإنما آثر كلمة (القول) التى تعم السر والجهر دون كلمة (السر) التى تقدمت

فى الكلام - للإيدان بأن علمه تعالى بالأمرين على وتيرة واحدة ، لانتفاوت فيه بالجلاء والخفاء كما فى علوم العباد .

وخلاصة ذلك - إنه يعلم هذا الضرب من الكلام وأعلى منه وأدنى منه ، وفى هذا مبالغة فى علمه تعالى بكل ما يمكن أن يسمع أو يعلم .

ثم بين سبحانه أنهم اقتسموا القول فى النبى صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله فقال : (بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراء ، بل هو شاعر) أى إنهم لم يقتصروا على قولهم السابق (هل هذا إلا بشر مثلكم) وعلى قولهم فيما ظهر على يديه إنه سحر - بل قال بعضهم : أخلاط أحلام قد رآها فى النوم ، وقال آخرون : بل اختلقه من تلقاء نفسه ونسبه إلى الله ، وقال قوم : بل هو شاعر وما أتى به شعر يخيل إلى السامع معانى لاحقيقة لها .

وخلاصة ذلك - إنهم ما صدقوا بحكمة هذا القرآن ولا أقرؤا أنه من عند الله ، ولا أنه وحى أوحاه الله إليه ، بل قالوا هذه المقالات .

وهذا الاضطراب والتردد فى القول دأب المحجوج للغلوب على أمره ، لا يتردد إلا بين باطل وأبطل منه ، ويتذبذب بين فاسد وأفسد منه .

وقد ذكرت هذه المقالات على هذا الوضع ، إشارة إلى ترقبها فى الفساد ، فإن كونها سحرا أقرب من كونها أضغاث أحلام فقد يقال : « إن من البيان لسحرا » ، بخلاف تخاليف الكلام التى لا تنضبط ولا شبه لها بهذا النظم البديع ، وادعاء كونها مفتريات أبعد وأبعد ، لأنه عليه السلام قد شهر بالأمانة والصدق - إلى أنهم أعرف ، الناس بالفرق بين المنظوم والمنثور ، وبين ما يساق له الشعر ، وما سيق له هذا الكلام ، إلى أنهم يعلمون من مخالطته مدى أربعين سنة أنه لا يتسهل له الشعر وإن أراد .

ولما قدحوا فى القرآن طلبوا آية أخرى غيره فقالوا :

(فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) أى إن كان صادقا فى أن الله بعثه رسولا إلينا وأن الذى يتلوه وحى أوحاه الله إليه - فليأتنا بحجة تدل على ما يقول ويدعى كما جاء

به الرسل الأولون من قبله من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وناقاة صالح وما أشبه ذلك من المعجزات التي لا يقدر عليها إلا الله ولا يأتي بها إلا الأنبياء والرسل . وفي التمييز بقولهم (كما أرسل الأولون) بيان كونها آيات مسلمة تثبت الرسالة بشاؤها ، ويترتب عليها المقصود ، وليس لأحد أن ينازع فيها .

ثم كذبهم سبحانه فيما تضمنته خاتمة مقالهم من الوعد بالإيمان حين إتيان الآية المقترحة ، وبين أن في ترك إجابتهم عما طلبوا - إبقاء عليهم فإنهم لو أوتوها ولم يؤمنوا بها لاستئصلوا بالعذاب كما هي سنة الله في الأمم السالفة إذا كذبت رسالها بعد إتيانهم بما اقترحوا ، ولكن قد سبقت كلمة الله أن مشركي هذه الأمة لا يعذبون بعذاب الاستئصال فقال :

(ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ؟) أى إن هؤلاء أشد عتوا من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات ووعدوا أنهم يؤمنون حين مجيئها ، فلما جاءتهم نكثوا العهد وخالفوا ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فلو أعطوا ما اقترحوا لكانوا أشد نكثا ، فينزل بهم عذاب الاستئصال ، وقد سبقت كلمة ربك أنه سيؤخر عذابهم إلى اليوم المعلوم .

قال قتادة : قال أهل مكة للنبي صلى الله عليه وسلم إذا كان ما نقوله حقا ويسرك أن تؤمن فقول لنا الصفا ذهبيا ، فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان الذي سألك قومك ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا ، وإن شئت استأنيت بقومك ، قال بل أستأني بقومي فأنزل الله ما آمنت قبلهم الآية .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) .

شرح المفردات

أهل الذكر : هم أهل الكتاب ، الجسد : كالجسم إلا أنه لا يقال لغير الإنسان كما قال الخليل بن أحمد ، خالدين : أى باقين ، الوعد : هو نصبرهم وإهلاك أعدائهم ، المسرفين : أى الكافرين ، ذكركم : أى عظمتكم ، تعقلون : أى تتدبرون ما فى تضاعيفه من العبر والمواعظ .

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه فيما سلف إنكارهم لأن يكون الرسول بشرا بقولهم «هل هذا إلا بشر مثلكم» أجاب عن هذه الشبهة بأن هذه سنة الله فى الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فليس محمد يبدع من الرسل ، وإن كنتم فى ريب من ذلك فاسألوا أهل الكتاب من قبلكم ، ثم ذكر أن الرسل كسائر البشر فى سنن الطبيعة البشرية يأكلون الطعام ولا يخلدون فى الأرض ، بل يموتون كما يموت سائر الناس ، وقد صدقهم الله وعده ، فينجيهم ومن آمن بهم ويهلك المكذبين لهم ، وأعقب ذلك بأن فى القرآن عظة لهم لو كانوا يعقلون ما فى تضاعيفه من مواعظ وزواجر ووعد ووعيد .

الإيضاح

(وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) أى وما أرسلنا قبلك أيها الرسول رسولا إلى أمة من الأمم التى خلت من قبلك إلا رجالا مثلهم نوحى إليه ما تريد من أمرنا ونهينا ، لا ملكا نوحى إليه بواسطة الناموس ما نوحى من الشرائع والأحكام والقصص والأخبار ، فما بالهم لا يفهمون أنك لست بدعا من الرسل ؟ وقد جاء بمعنى الآية قوله : «وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من

أَهْلِ الْقُرَى » وقوله : « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ » وقوله حكاية عن تقدم من الأمم : « أَبَشِّرْهُم بِهَدُونَا ؟ » .

ثم أمرهم سبحانه أن يسألوا في ذلك أهل الكتاب من اليهود والنصارى بتبكيتهما لهم وإزالة لما علق بأذهانهم من الاستبعاد بعد أن بين لهم وجه الحق فقال :

(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) أى فاسألوا أهل الكتاب ممن يؤمن بالتوراة والإنجيل - يخبروكم عن ذلك إن كنتم لاتعلمون الحق ولايستبين لكم الصواب . وبعد أن بين أنه صلى الله عليه وسلم على سنة من مضى من الرسل في كونه رجلا - بين أنه على سنتهم في سائر الأوصاف التى حكم بها على البشر في معيشتهم وموتهم فقال :

(وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) أى وما جعلنا الرسل الذين أرسلناهم من قبلك إلى الأمم الماضية قبل أمتك - جسدا لا يأكلون الطعام : أى لم نجعلهم ملائكة لا يأكلون الطعام ، بل جعلناهم أجسادا مثلك يأكلون الطعام وتعرض لهم أطوار البشر جميعا من صحة ومرض وسرور وحزن ونوم ويقظة ، وما كانوا مخلدين لا يموتون ولا يفنون ، ولكنهم غيروا حينما من الدهر وهم أحياء ثم طوأم الثرى وضمتهم القبور .

وخلاصة ذلك — إنا جعلنا الرسل أجساما تتغذى حين الحياة ، ثم يصير أمرها إلى الغناء بعد استيفاء آجالها ، ولم نجعلهم ملائكة لا يتغذون ، وما كانوا مخلدين بأجسادهم ، بل يموتون كما مات الناس قبلهم وبعدهم ، وإنما امتازوا عن غيرهم من سائر الناس بما يأتيهم عن الله من الوحي والزلفى عنده .

(ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين) أى إنا أرسلنا رسلا من البشر وصدقناهم وعدنا فنصرناهم على المكذبين وأنجيناهم ومن آمن بهم وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بتكذيبهم رسل ربهم .

ونحو الآية قوله : « فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » .

وبعد أن حقق رسالته صلى الله عليه وسلم ببيان أنه كسائر الرسل الكرام - شرع يحقق فضل القرآن الكريم ويبين نفعه للناس بعد أن ذكر في صدر السورة اعراض الناس عما يأتيهم من آياته واضطرابهم في شأنه فقال :

(لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم) أى ولقد آتيناكم كتابا فيه عظمتكم بما إشتمل عليه من مكارم الأخلاق وفاضل الآداب وسديد الشرائع والأحكام مما فيه سعادة البشر في حياتهم الدنيوية والأخروية .

ثم حثهم على التدبر في أمر هذا الكتاب فقال :

(أفلا تعقلون ؟) أى أفلا تتفكرون فيما في تضاعيفه من فنون المواعظ وقوارع الزواجر ، فتحذروا الوقوع فيما يخالف أمره ونهيه ، ولا يخفى ما في هذا من الحث على التدبر ، لأن الخوف من لوازم العقل ، فمن لم يتدبر فكأنه لا عقل له .

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١)
فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥) .

شرح المفردات

كم : لفظ يفيد تكثير وقوع ما بعدها ، القصم : هو الكسر بتفريق الأجزاء وإذهاب الثماها ، والإحساس : الإدراك بالحساسة : أى أدركوا بحاسة البصر عذابنا

الشديد ، والبأس : الشدة ، والرخص : الفرار والهرب ؛ يقال رخص الرجل الفرس برجليه إذا كده بساقيه ثم كثر حتى قيل رخص الفرس إذا عدا ومنه « ارْخُضْ بِرِجْلِكَ » والإتراف : إيطار النعمة يقال أترف فلان: أى وسع عليه فى معاشه وقل فيه همه ، يا ويلنا : أى يا هلاكنا ، دعواهم : أى دعوتهم التى يرددونها ، حصيد : أى كالزراع المحصود بالمناجل ، خامدين : أى كالنار التى تخدمت وانطقت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه سبحانه أهلك المسرفين فى كفرهم بالله والعاصين لأوامره ونواهيه - بين هنا طريق إهلاكهم وكثرة ما حدث من ذلك فى كثير من الأمم ، ثم بين أنه أنشأ بعد الهالكين قوما آخرين ، وأنهم حينما أحسوا بأس الله فروا هاربين فقيل لهم على ضرب من التهمك والسخرية فلترجعوا إلى ما كنتم فيه من الترف والنعيم وإلى تلك المساكن المشيدة والفرش المنجدة ، فاعلمكم تسألون عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومنازلكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة ، ثم بعد أن يؤسوا من الخلاص وأيقنوا بالعذاب قالوا هلاكلنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا ، مستوجبين العذاب بما قدمنا ، وما زالوا يكررون هذه الكلمة ويرددونها وجعلوها هجراهم حتى صاروا كالنبات المحصود والنار الخامدة .

الإيضاح

(وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين) أى وكثير من أهل القرى أهلكناهم بكفرهم بالله وتكذيبهم رسوله ، ثم أنشأنا بعد إهلاكهم أمما أخرى سوامهم .

ونحو الآية قوله « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ » وقوله « فَكَانَتْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِبَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » .

ثم بين حالهم حين حلول البأس بهم فقال :

(فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون) أى فلما أيقنوا أن العذاب واقع بهم لاجالة كما أوعدهم أنبيائهم - إذا هم يهربون سراعاً عجلين يقدرون منهزمين .

والخلاصة - إنهم لما علموا شدة بأسنا وبطشنا علم حس ومشاهدة ركضوا فى ديارهم هاربين من قراهم بعد أن كانوا قد تجبروا على رسلهم وقالوا لهم « لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ نَتَعَوَّدَنَّ فِي مَلَّتِنَا » .

ثم ذكر أنهم فى ذلك الحين جديرون أن يقال لهم .

(لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون) أى يقال لهم على طريق الاستهزاء والتهميم : لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمساكن الطيبة والفرش المنجدة الوثيرة ، لعلكم تقصدون للسؤال عما يجرى عليكم وينزل بأموالكم ومساكنكم ، فتجيبوا السائلين عما تشاهدون وتعلمون .

ثم ذكر ما أجابوا به القائلين لهم لا تركضوا وارجعوا فقال :

(قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين) أى قالوا حين يتسوا من الخلاص إذ نزل بهم بأس الله بظالمهم أنفسهم : هلاكنا لنا لكفرنا بربنا - وهذا منهم اعتراف بالكفر المستتبع لعذاب ، وندم عليه حين لا ينفع الندم :

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبعى مرتع مبتغيه وخيم

(فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين) أى فما زالوا يرددون هذه المقالة ويحذرونها هجيراً حتى حصدوا حصداً ، وخمدت حركاتهم ، وهذأت أصواتهم ، ولم ينبسوا ببنت شفة .

وخلاصة هذا - إنهم صاروا يكررون الاعتراف بظلم أنفسهم ولكن لم ينفعهم ذلك كما قال : « قَلَمَ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » حتى لم يبق لهم حس ولا حركة ، وأبيدوا كما يباد الحصيد ، وخدوا كما تخمد النار .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ
تَتَّخِذَ لَهْوًا لَا تَخْذُ نَاهٍ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنتُمْ فَاءِئِينَ (١٧) بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ
عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)
وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) .

شرح المفردات

اللاعب : الفعل لا يعقد به مقصد صحيح ، والاهو : الفعل يعمل ترويحاً عن
النفس ، ومن ثم تسمى المرأة لهواً وكذا الولد لأنه يُستروحُ بكل منهما ، ويقال
لامرأة الرجل وولده ريحاًنتاه ، من لدنا : أى من عندنا ، انقذف : الرمي البعيد ،
وأصل الدمع : كسر الشيء الرخو ؛ ويراد به هنا القهر والإهلاك ، زاهق : أى زائل
ذاهب ، الويل : الهلاك ، مَنْ عِنْدَهُ هم الملائكة ، لا يستكبرون أى لا يتعظمون ،
يستحسرون : أى يكونون ويتعبدون ، يقال حَسِرَ البعير إذا أعيا وكلٌّ ، ومثله استحسر
وتحسر ، لا يفترون : أى لا يضعفون ولا يترآخون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مطاعنهم فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بتلك المقالات التى
سلف ذكرها - قفى على ذلك بذكر فساد تلك المطاعن وبيان أن من أنكر نبوته
فقد جعل تلك المعجزات التى ظهرت على يديه من باب العبث واللعب . تنزه ربنا
عن ذلك ، فإنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما إلا لعبادته ومعرفته ومجازاة من
قام بهما بالثواب والنعيم ، ومن لم يقم بذلك بالعقاب الأليم ، ولن يتم علم هذا
إلا بإنزال الكتب وإرسال الرسل صلوات الله عليهم ، فنسكّر الرسالة جاعل خلق
السماء والأرض لهواً ولعباً ، تعالى خالقهما علواً كبيراً .

ثم أردف هذا بالرد على من ادعى أن المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، بأنه لو اتخذ ولدا لاتخذ من الملائكة ، وعقب هذا بأن الغلبة للحق دائماً مهما طال أمد الباطل ، وأن جميع من في السموات والأرض كلهم عبيده لا يستكبرون عن عبادته ولا يملون .

الإيضاح

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) أى ما خلقنا هذا السقف المرفوع ، وهذا المهاد الموضوع ، وما بينهما من أصناف الخلوقات البديعة - للهو واللعب ، بل خلقناها لقوائد دينية ، وحكم ربانية ، كأن تكون دليلاً على معرفة الخالق لها ، ووسيلة لعظة والاعتبار - إلى ما فيها من منافع أخرى لا حصر لها .

وخلاصة ذلك — إن إيجاد العالم كله ولا سيما النوع الإنسانى واستخلافه فى الأرض - مبنى على بديع الحكم ، مستتبع لغايات جليلة لاتخفى على ذوى الأبصار ، وقد علم بعضها من أنعموا النظر فى الكون وعجائبه ، وأوتوا حظاً من صادق المعرفة ، فعرفوا بعض أسرارها ، وانتفعوا ببعض ما أودع فى باطن الأرض وما على ظاهر سطحها ، مما كان سبباً فى رقى الإنسان ، ولا يزال العلم يولد لنا كل يوم عجيباً ويظهر لنا من كنوزها غريباً « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

ونحو الآية قوله تعالى « وَمَا خَقَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا . ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَويلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ » .

ثم أكد نفى اللعب بقوله :

(لو أردنا أن نتخذ لهم واتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) أى لو أردنا أن نتخذ لهم كما يتخذ العباد لاتخذناه من عندنا من العوالم المجردة من المادة كالملائكة ، لكننا لاتنزل للملابسة ماهو من شأنكم المادى كالأزواج والولد ، إذ لا يحمل بنا ، لأنه

خارج عن نظام حكمتنا ، وقوانين نظامنا ، ورفعة قدرنا ، فنحن لائلهو بالصور
الجسمية ، ولا بالنفوس الروحية .

وخلاصة هذا — إنا خلقناكم لحكمة ، وصورناكم لغاية ، وجعلناكم السمع
والأبصار لمنافع قدرناها لكم ، لا للهونا ولعينا ، ومن ثم لانترككم سدى ، بل
نحاسبكم ونؤاخذكم ، والجدُّ مطلبنا ، واللهو واللعب من شأن العبيد الخلقين ، لا من
شأن رب العالمين .

ونحو الآية قوله « لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » .

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) أى إن من شأننا أن
نرمي الحق الذى من جلته الجد على الباطل الذى منه اللعاب فيكسر دماغه بحيث
يشق غشاءه فيؤدى ذلك إلى زهوق روحه ، فيهلك — وقد شبه الباطل بإنسان كسر
دماغه فيهلك — .

وإذا كان هذا شأننا فكيف نترككم بلا إنذار كأننا خلقناكم لئلهو بكم .
(وإلينا مرجعهم) أى وإلينا العذاب الشديد من وصفكم ربكم
بغير صفته ، وقيلكم إنه اتخذ ولدا وزوجة وافترائكم ذلك عليه .

ولما حكى كلام الطاعنين فى النبوات وأجاب عنها ، وبين أن غرضهم من
تلك المطاعن إنما هو التمرد والعناد — بين فى هذه الآية أنه غنى عن طاعتهم ، لأنه
هو المالك لجميع الخلقوت ، والملائكة على جلالة قدرهم مطيعون له خائفون منه ،
فأجدر بالبشر على ضعفهم أن يطيعوه ، وما أخلقهم أن يعبدوه ، فقال :

(وله من فى السموات والأرض) أى وله تعالى جميع الخلقوت خلقا ومسكا
وتديرا وتصرفا وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة دون أن يكون لأحد فى ذلك سلطان
لا استقلال ولا استتباعا .

(ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) أى والملائكة الذين شرفت منزلتهم عند ربهم لا يستعظمون عن عبادته ولا يكلون ولا يتعبون .
وتخصيص الملائكة بالذكر للدلالة على رفعة شأنهم ، كما خصص جبريل من بين الملائكة في قوله « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ » .
ثم بين سبحانه كيف يعبدون ربهم فقال :

(يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فهم دائبون في العمل ليلا ونهارا ، مطيعون قصدا وعملا ، قادرون عليه كما قال في الآية الأخرى « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » .

وخلاصة ذلك — المبالغة في تنزيه الله وتسبيحه ، وهذا لا يمنع من تحس فترات لا يفعلون فيها ذلك ، كما يقال : فلان لا يفتر عن ثنائك ، وشكر آلائك .

أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

ينشرون، من أنشره : أى أحياه ، لفسدتا : أى نلجنا عن نظامهما وخربتا ، فسبحان الله : أى تنزيها له عما وصفوه به ، هذا ذكر من معنى : أى هذا الوحي المتضمن للتوحيد عظة أمتي ، وذكر من قبلي : أى وموعظتهم وإرشادهم ، لا يسيقونه بالقول : أى لا يتكلمون حتى يأمرهم ، مكرمون : أى مقربون عنده ، من خشيته : أى بسبب خوف عذابه ، مشفقون : أى حذرون .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه في سابق الآيات أن كثيرا من الأمم المكذبة أرسلها قد أريدت وأشئ بعدها قوم آخرون ، وأنهم حين أحسوا بالبأس ارعوا وندموا حيث لا ينفع الندم ؛ ثم أردف ذلك بذكر أن من في السموات والأرض عبيده ، وأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادته ، ولا يكلون ولا يعلمون منها - ذكر هنا أنه كان يجب عليهم أن يبادروا إلى التوحيد ، لكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل فعلوا ضده فكانوا جديرين بالتوبيخ والتعنيف ، ثم أقام البرهان على وحدانيته وأنه لو كان في السموات والأرض إلهان لهلك من فيهما ، تنزه ربنا عما يقول هؤلاء المشركون ، وقد كذب من اتخذ آلهة لادليل عليها ، وأن جميع الأديان جاءت بإخلاص التوحيد ، كما كذب من جعل لله ولدا فقال : الملائكة بنات الله ، والملائكة خلق مطيعون لربهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خوفه حذرون ، ومن بقل منهم إنه إله فالأجزاء له إلا جهنم ، وهى جزاء كل ظالم .

الإيضاح

(أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم مع حقارتهم وجاديتهم ينشرون الموتى .

وإنهم ولا شك بعزل عن ذلك — والمشركون وإن لم يقولوا ذلك صريحا ،
فما ادعوه لها من الألوهية يستدعى ثبوت إحياء الموتى لها ، لأنه من خصائصها .

ووصف الآلهة بكونها من الأرض — للإشارة إلى أنها من الأصنام التى تعبد
فيها ، وللإيماء إلى ضعة شأنها ، وحقارة أمرها .

ثم أقام بعد هذا — الدلائل العقلية على التوحيد ونفى أن يكون هناك إله غير الله
فقال :

(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أى لو كان فى السموات والأرض غير الله
لخربتا وهلك من فيهما — ذاك أنه لو كان فيهما إلهان فيما أن يختلفا أو يتفقا
فى التصرف فى السكون ، والأول ظاهر البطلان ، لأنه إما أن ينفذ مرادهما معا
فيريد أحدهما الإيجاد والثانى لا يريده فيثبت الوجود والعدم لشيء يختلفا فيه ، وإما
أن ينفذ مراد أحدهما دون الثانى . فيكون هذا مغول اليد عاجزا ، والإله لا يكون
كذلك ، والثانى باطل أيضا ، لأنهما إذا أوجدها معا وجب توارد الخلق من خالقين
على مخلوق واحد .

ولما أثبت بالدلائل أن المدبر للسموات والأرض لا يكون إلا واحدا ، وأن
ذلك الواحد لا يكون إلا الله قال :

(فسبحان الله رب العرش عما يصفون) أى فتنزهها لله رب العرش المحيط بهذا
السكون ومركز تدبير العالم عما يقول هؤلاء المشركون من أن له ولدا أو شريكا .
ثم أكد هذا التنزيه بقوله :

(لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) أى هو الحاكم الذى لا معقب لحكمه ،
ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله ، وعلمه وحكمته ، وعدله ولطفه ، وهو سائل خلقه
عما يعملون كما قال : « فَوَرَبِّكَ لَئِنَّمَا أَنْتُمْ بِأَعْمَالِكُمْ شَاكِرُونَ » وقال :
« وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » .

ثم أعاد الإنكار مرة أخرى استفظاعاً لشأنهم ، واستعظاماً لكفرهم ، وإظهاراً
لجهلهم فقال :

(أم اتخذوا من دونه آلهة) أى أبعد هذه الأدلة التى ظهرت تقولون إن
الله شركاء ؟ .

ثم أمرهم بإقامة الدليل على صحة ما يدعون فقال :

(قل هاتوا برهانكم) أى بعد أن ثبت أنه لا إله غيره هاتوا برهانكم على صحة
اتخاذ الآلهة من الأصنام والأوثان ، ولا سبيل إلى ذلك ، لا بالدليل العقلى لأنه مر بطلانه ،
ولا بالدليل النقلى لأن الكتب السماوية جميعاً متفقة على هذا ، وإلى ذلك أشار بقوله :
(هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) أى هذا هو الكتاب المنزل على من معى ،
وهذه هى الكتب المنزلة على من تقدمنى من الأنبياء كالتوراة والإنجيل والزيور
وصحف إبراهيم وموسى ، انظروا فيها هل تجدون ، لا الأمر بالتوحيد والنهى
عن الإشراك .

قال الزجاج : قيل لهم : هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم
إلهاً غير الله ، فهل فى ذكر من معى وذكر من قبلى إلا توحيد الله ؟
وفى هذا تبكيت لهم متضمن إثبات نقيض مدعاهم ، وإذا فليس لهم
إلا العجز مركباً .

ولما كانوا لا يجدون شبهة لهم فضلاً عن حجة ، ذمهم على جهلهم بمواضع
الحق فقال :

(بل أكثرهم لا يعلمون الحق) أى بل أكثر هؤلاء لا يميزون بين الحق
والباطل ، فلا تؤثر فيهم الحاجة وإقامة البرهان والافتناع به .

ثم ذكر أن هذا كان سبباً فى إعراضهم وتجاهلهم عن سماع الحق فقال :

(فهم معرضون) أى فهم لأجل هذا الجهل المستولى على أكثرهم أعرضوا عن

قبول الحق وعن النظر الموصل إليه ، فلا يتأملون حجة ، ولا يتدبرون برهاناً ، ولا يتفكرون في دليل .

ثم أكد ما تقدم من أدلة التوحيد فقال :

(وما أرسننا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)
أى وما أرسننا رسولا إلى أمة من الأمم إلا أوحينا إليه أنه لامعبود فى السموات والأرض إلا أنا فأخلصوا الى العبادة وأفردوا الى الألوهة .

وخلاصة ذلك — إن ارسل جميعا أرسلوا بالإخلاص والتوحيد لا يقبل منهم سواه .
ونحو الآية قوله : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ، أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟ » وقوله : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » .

وبعد أن بين سبحانه بالدلائل الباهرة أنه منزّه عن الشريك والندّ — أردف ذلك ببراهينه عن اتخاذ الولد فقال :

(وقالوا اتخذ الرحمن ولداً) أى وقال فريق من هؤلاء المشركين وهم حى من خزاعة وجهينة وبنى سلمة — الملائكة بنات الله ، فرد الله تعالى عليهم بقوله : (سبحانه) أى تنزيها له عن ذلك ، لأن الولد لابد أن يكون شبيهاً بالوالد ، فلو كان له ولد لأشبهه ، ولا مجانسة بين النعمة والمنعم والخالق والمخلوق .

ثم أكد إبطال ما سلف بقوله :

(بل عباد مكرمون) أى ليس الملائكة كما قالوا ، بل هم عباد مخلوقون له تعالى ، فهم ملكه سكنهم مقربون عنده فى منازل عالية ، ومقامات سامية .

ثم بين سبحانه كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره وتأديبهم معه تعالى فقال :

(لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) أى لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم ، ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله .

وخلاصة ذلك — إنهم في نهاية المراقبة لربهم ، يجمعون بين الطاعة في القول والفعل.

ثم علل هذه الطاعة بعلامهم بأن ربهم محيط بهم لا تخفى عليه خافية من أمرهم فقال :
(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى يعلم ما عملوا وما هم عاملون ، لا تخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا ، فلا يزالون يراقبونهم في جميع شئونهم .

(ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) أن يشفع له الشافعون ، أى إلا لمن رضى عنه ، فلا تطمعوا في شفاعتهم لكم بغير رضاه تعالى .

قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله ، وقد ثبت في الصحيح أن الملائكة يشفعون في الدار الآخرة ، قال قتادة أى لأهل التوحيد .

(وهم من خشية مشفقون) أى وهم من خوف الله والإشفاق من عقابه حذرون أن يعصوه ويخالفوا أمره ونهيه .

(ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) أى ومن يدعى منهم أنه إله مع الله فجزاؤه جهنم على ما ادعى كسائر الجرمين ، ولا يغنى عنه ماسبق من أوصافه : ومرضى أفعاله .

قال قتادة والضحك وغيرهما : عني بهذه الآية إبليس حيث ادعى الشراكة ودعا إلى عبادة نفسه وكان من الملائكة ، ولم يقل أحد من الملائكة (إني إله) غيره .

(كذلك نجزي الظالمين) أى وهكذا نجزي كل من ظلم نفسه ، فكفر بالله وعبد غيره .

وخلاصة ما تقدم — إنه تعالى وصف الملائكة بخمس صفات تدل على العبودية وتنفي الولادة .

(١) المبالغة في الطاعة ، فإنهم لا يقولون قولاً ولا يفعلون فعلاً إلا بإذنه .
(٢) إنه سبحانه يعلم أسرارهم وهم لا يعلمون أسرارده ، فهو المستحق للعبادة لا هم كما قال عيسى عليه السلام : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ » .

(٣) إنيهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الشفاعة له ، ومن يكون إلها أو ولداً للإله لا يكون كذلك .

(٤) إنيهم في نهاية الإشفاق والوجل من الله .

(٥) إن حالهم كحال سائر المكلفين في الوعد والوعيد ، فكيف يكونون آلهة .

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ؟ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

شرح المفردات

الرتق : الضم والالتحام خلة كان أو صنعة ، والفتق : الفصل بين الشيئين المتصقين ، الرواسي : الثوابت واحدها راسية ، وتميد : تتحرك وتضطرب ، والفجاج واحدها فج ، وهوشة يكتنفها جبلان ، والسبل واحدها سبيل : وهو الطريق الواسع والفلك : كل شيء دائر ، وجمعه أفلاك .

المعنى الجملى

بعد أن حكى مقالات أولئك المشركين الذين كانوا يعبدون آلهة من دون الله ، ومقالات أولئك الذين قالوا اتخذ الله ولداً من الملائكة وطالبهم بالدليل على صدق ما يدعون ، وبين لهم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك لامن العقل ولا من النقل ، إذ كل الرسل السابقين كان أسس دعوتهم أن لا إله إلا أنا فاعبدون .

قنى على ذلك بتوبيخهم على عدم تدبرهم الآيات المنصوبة في السكون الدالة على التوحيد ، ولقت أنظارهم إلى أنه لا ينبغي عبادة الأصنام والأوثان ، فإن الإله أقدر على مثل هذه الخلفات لا يعبد سواء من حجر أو شجر لا يضر ولا ينفع .

الإيضاح

اعلم أنه سبحانه ذكر أدلة ستة تثبت وجود الخالق الواحد القادر ، لوتدبرها المنصفون ، وعقلها الجاحدون لم يجدوا مجالا للإنكار ولا سبيلا إلى الجحد :

(١) (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) أى ألم يعلم الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا مرتوقيتين : أى ملتصقتين متصلتين ففصلناهما وأزلنا اتحادهما .

وهكذا يقول علماء الفلك حديثا إذ يثبتون أن الشمس كانت كرة نارية دائرة حول نفسها ملايين السنين ، وفي أثناء سيرها السريع انفصلت منها أرضنا والأرضون الأخرى وهى السيارات من خط الاستواء الشمسى ، فتباعدت عنها ، وما زالت أرضنا دائرة حول نفسها وحول الشمس على نظام خاص بحكم الجاذبية .

قال الأستاذ عبد الحميد سماحة وكيل المرصد الملكى المصرى : إن النظرية الحديثة فى كيفية مولد الأرض وأخواتها الكواكب السيارة من الشمس ، هى افتراض اقتراب نجم كبير من الشمس فيما مضى من الزمن اقترابا كافيا ، فجذب من سطحها كتلة لم تلبث أن انفصلت من الشمس على شكل سهم مدبب الطرفين سميك فى الوسط ، ثم تكثفت هذه الكتلة فى الفضاء البارد إلى كتل منفصلة ، وبقيت هذه الكتل التى تمثل الأرض وأخواتها الكواكب السيارة تدور بفعل الجاذبية للشمس فى مداراتها حولها بلا انقطاع ، وانظروا نورها الآن كتها كانت أصغر من أن تحتفظ بصفاتها الأصلية قبل الانفصال وهو إشعاع الضوء .

فالكواكب السيارة ومنها الأرض لانراها بضوء يتشعع منها ، بل بضوء

الشمس منعكسا على سطوحها كما نرى القمر وكما نرى وجوهنا بضوء الشمس أو المصباح منعكسا عليها .

والكواكب السيارة تسعة وهى بترتيب قربها من الشمس : عطارد . الزهرة . الأرض . المريخ . المشتري . زحل . أورانوس . نبتون . بلوتوه .

ويدخل ضمن هذه الأمرة مجموعة كبيرة العدد من أجسام صغيرة تقع بين مدارى المريخ والمشتري وتدور حول الشمس كسرب من الطير ، ومن بينها المذنبات أيضا والشهب التى نرى الكثير منها كل ليلة يهوى نحو الأرض ويحترق باحتكاكه بالغلاف الجوى الذى حولها .

أما بقية الأجرام السماوية التى نراها ليلا تزين سطح القبة السماوية فهى النجوم . والنجوم شمس موادها المركبة منها هى المواد المركبة منها شمسا ، فسبحان الخلاق العظيم اه .

وبعد أزمنة طويلة لايعبر مداها بردت القشرة الأرضية وصارت صالحة لإنبات بعض أنواع النبات ، ثم لسكنى الحيوان ثم نسكنى الإنسان .

ولا شك أن هذه النظرية التى لم يكن يعرفها العرب ولا الأمم المعاصرة لهم ، ولم تعرف إلا منذ القرن السابع عشر الميلادى ومحضت بعض التمهيع فى عصرنا الحاضر — تدل أكبر دلالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن القرآن وحى أرسله إليه ربه هداية للبشر ورحمة للعالمين .

وخلاصة ذلك — إن العقل البشرى مستعد لدرس عجائب هذا الكون ، ومعرفة سير هذه الكواكب ودورانها بنظام الجاذبية حول الشمس على سنن لايتغير ولا يتبدل ، وقد دل البحث على أنها كلها كانت مجموعة واحدة انفصل بعضها من بعض بأسباب خاصة قدرها العليم الخبير .

وقد أرشد إلى بيان هذا خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ، ولم يكن قومه يفكرون فيه ولا الأمم المعاصرة لهم ، مما يدل على أن ذلك وحى أوحى إليه من لدن عليم خبير ،

وقد كان هذا وحده كافيا في الإسراع إلى تصديقه والإيمان برسائته لولا الجحد والإنكار وعمى القلوب « إِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الضُّلُومِ » .

(٢) (وجعلنا من الماء كل شيء حي) أى وخلقنا من الماء كل حيوان كما قال في آية أخرى « وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ » وكذا يحيا به كل نبات وينمو . وقال قتادة : خلقنا كل نام من الماء ، فدخل الحيوان والنبات . ويرى بعض علماء العصر الحاضر أن كل حيوان خلق أولا في البحر ، فأصل جميع الطيور والزواحف وحيوان البر — من البحر .

ثم تطبعت بطباع حيوان البر على مدى الأيام وتنوعت أصنافها ، ولهم على ذلك كثير من الأدلة .

(أفلا يؤمنون) بأن يتدبروا هذه الأدلة فيعلموا بها الخالق الذى لا يشبه غيره ، ويتركوا طريق الشرك .

(٣) (وجعلنا في الأرض رواسي أن يمتد بهم) أى وجعلنا فيها جبالا ثابتة لئلا تتمد وتضطرب بهم .

وقد أثبت العلم حديثا أن الأرض كانت نارا ملتهبة ثم بردت قشرتها وصارت صوانية صلبة وقدرنا زمن ذلك بنحو ثلثائة مليون سنة .

ومما يدل على صدق هذه النظرية ما نراه من حمم النيران التى تخرجها البراكين في جهات كثيرة من الأرض كما حدث في سنة ١٩٠٩ ببركان ويزوف بـ إيطاليا ، وقد طغى على مدينة مسينا وابتنعها في باطنه ولم يبق منها شيئا .

فهذه البراكين أشبه بأفواه تتنفس بها الأرض لتخرج من باطنها نيرانا ومواد ذائبة ، مما يرشد إلى أن الأرض كلها في أحقاب طويلة كانت كذلك .

ولولا هذه القشرة الصلبة لتفجرت ينابيع النيران من سائر جهاتها كما كانت بعد ما انفصلت من الشمس كثيرة الثوران والغوران .

وهذه القشرة الصوانية البعيدة الغور المغلفة للكرة النارية هي التى نبتت منها الجبال التى نراها فوق أرضنا ، وهى التى جعلت لحفظ الأرض من أن تتمد ، لأن الطبقة الصوانية هي الحافظة لكرة النار التى تحتها ، وما هي إلا كسنان لها طالت وامتدت فوق طبقات الأرض ، فلو زالت هذه الجبال لبقى ماتحتها مفتوحا ، وإذ ذاك ربما نشور البراكين فى جهات كثيرة من الأرض وتضطرب اضطرابا شديدا وتززل زلزالا كثيرا .

وخلاصة ذلك — إنه لو لم تكن هذه الجبال التى هي قطعة من قشرة الأرض مرتفعة لما وجد ما يحفظ النيران المشتعلة فى باطن الأرض من الظهور على سطحها بالبراكين والزلازل ، وإذ ذاك ربما تضطرب الأرض اضطرابا شديدا وتخرج نيرانها المتهبة من باطنها وتطفى على سطحها وتهلك الخثر والنسل .

وقد قدر العلماء حديثا نسبة الجبال إلى الأرض فقالوا : لو كان قطر الكرة الأرضية مترا لم تزد الجبال على مليمتر ونصف فحسب .

وهذه هي المعجزة الثابتة فى الآية التى ترشد إلى أن القرآن وحى يوحى ، فما محمد ولا قومه ولا الأمم المعاصرون لهم يعاونون شيئا من هذه الآيات الكونية التى أيد صحتها تقدم العلوم وفهم ظاهر الأرض وباطنها .

وفى هذا مصداق لما أثير عن على كرم الله وجهه « القرآن جديد لا تبلى جدته » .
(٤) (وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلمهم يهتدون) أى وجعلنا فى الأرض طرقا بين جبالها يسلكها الناس من قطر إلى قطر ومن إقليم إلى آخر ليهتدوا بذلك إلى مصالحهم ومهام أمورهم المعيشية .

(٥) (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) أى إنه تعالى نظم السماء وجعلها كالسقف المحفوظ من الاختلال وعدم النظام ، فقد حفظت الشمس والكواكب فى مداراتها بحيث لا يختلط بعضها ببعض ولا يختلط بعضها ببعض ، بل جعلت فى أماكنها الخاصة بها بقوة الجاذبية .

فالشمس والقمر والكواكب الأخرى متجاذبات حافظات لمداراتها لا تخرج عنها ، وإلا اختل نظام هذا العالم ، وبهذا الحفظ ونظام الدوران كان الليل والنهار الحادثين من جري الأرض حول الشمس .

ونحو الآية قوله : « وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » .

(ومع عن آياتها معروضون) أى والمشركون معروضون عن التفكير فى تلك الآيات الدالة على وحدانيتنا وعظيم قدرتنا وإحاطة علمنا .

(٦) (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون) أى والله خلق لكم الليل والنهار نعمة منه عليكم ، وحجة على عظيم سلطانه ، فهما يختلفان عليكم لصلاح معاشكم وأمور دنياكم وآخرتكم ، وخلق الأرض والشمس والقمر تجرى فى أفلاكها كما يجرى السمك فى الماء .

وهذا هو الرأى الحديث ، وأن هذه كلها تجرى فى عالم الأنير المالى لهذا الفضاء ، فالشمس تجرى ، والأرض تجرى ، والقمر يجرى ، وبينها هذه المخلوقات الحية ، فما مثل هذه العوالم إلا كآلة الطباعة ، والمخلوقات كلماتها وسطورها ، أو كدار صناعة تخرج كل يوم مصنوعات جديدة بعد فناء القديمة وزوالها .

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَذْكُرُونَ (٣٦) .

شرح المفردات

الخلد : الخلود والبقاء ، الذوق : هنا الإدراك ؛ والمراد من الموت مقدماته من الآلام العظيمة ، والمذكر لذلك هى النفس المفارقة التى ندرك مفارقتها للبدن ، ونبلوك :

أى تختبركم : والمراد تعاملكم معاملة من يختبركم ، بالخير والشر : أى المحبوب والمكروه ،
فتنة : أى ابتلاء ، إن يتخذونك إلا هزوا : أى ما يتخذونك إلا مهزوا به
مسخورا منه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة على وجود الخالق الواحد القادر ، بما يرون من
الآيات الكونية - أردف ذلك ببيان أن هذه الدنيا ما خلقت للخلود والدوام ،
ولا خلق من فيها للبقاء ، بل خلقت للابتلاء والامتحان ، ولتكون وسيلة إلى الآخرة
التي هي دار الخلود ، فلا تشمتوا إذا مات محمد صلى الله عليه وسلم فما هذا بسبيله
وحده ، بل هذا سنة الله في الخلق أجمعين .

تمنى رجال أن أموت ، وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى تزود لأخرى مثلها فكان قد
ثم ذكر أنهم نعو على نبيه صلى الله عليه وسلم ذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع
بالسوء ، ورد عليهم بأنهم قد كفروا بالرحمن المنعم على عباده الخالق لهم الحى
المميت ، ولا شئ أقبح من هذا وأخلق بالذم منه .

أخرج ابن أبى حاتم عن السدى « أنه صلى الله عليه وسلم مرّ على أبى سفيان
وأبى جهل وهما يتحدّثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال : هذا نبيّ بنى عبد مناف ،
فغضب أبو سفيان وقال : أتتكر أن يكون لعبد مناف نبي ؟ فسمعها النبي صلى الله
عليه وسلم فرجع إلى أبى جهل فوقع به وخوفه وقال : ما أراك منتهيا حتى يصيبك
ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة ، وقال لأبى سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت
إلا حية فترت الآية » .

الإيضاح

(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) أى وما كتب لأحد من قبلك البقاء فى الدنيا حتى نبقيك فيها ، بل قدر لك أن تموت كما مات رسلنا من قبلك .

(أفأنت مت فىهم الخالدون ؟) أى أفهؤلاء المشركون برهبهم هم الخالدون بعدك ؟ لا — ماذلك كذلك ، بل هم ميتون ، عشت أو ميت .

أخرج البيهقي وغيره عن عائشة قالت : دخل أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم وقد مات فقبّله وقال وانبياى ، واخليلاه ، واصفياى ، ثم تلا : وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد الآية .

ثم أكد ماسلف وبين أن أحدا لا يبقى فى هذه الدنيا فقال :

(كل نفس ذائقة الموت) أى كل نفس منقوسة من خلقه ذائقة مرارة الموت ومتجرعة كأسه وشدة مفارقة الروح للبدن ، وقد جاء فى الحديث « إن للموت لسكرات » فلا يفرحن أحد لموت أحد ولا يظنون التشقى منه ، كما لا ينبغي أن تبدو عليه علامات الجزع والحسرة لموت أحد .

(ونبلوكم بالشر والخير فتنة) أى ونختبركم أيها الناس بالمضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد ، وبنعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من حصول ما تريدون ، انزى أتصبرون فى الحزن وتشكرون فى المنع ؟ فيزداد ثوابكم عند ربكم إذا قتم بأداء ذلك ، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر ، فالمنحة أعظم البلاءين ؛ ومن ثم قال عمر رضى الله عنه : بليتنا بالضراء فصبرنا ، وبليتنا بالسراء فلم نصبر ، وقال على كرم الله وجهه : من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مكبر به فهو مخدوع عن عقله .

وخلاصة ذلك — إنا نعامدكم معاملة من يختبركم ونفتنكم كما يفتن الذهب إذا أريد تصفيته بالنار عما يخالطه من الغش ، انزى أتصبرون فى الشدائد ، وتشكرون حين الرخاء ؟ .

(وإلينا ترجعون) فنجازيكم وفق ما يظهر من أعمالكم .
ولا يخفى ما فى هذا من الوعد والنوعيد بالثواب والعقاب .

(وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا) أى وإذا رآك المشركون لم يكن لهم عمل إلا أن يجعلوك موضع السخرية والهزؤ ، وقد كان من حقهم أن يفكروا ملياً فيما يشاهدون من أخلاقك وآدابك ، وفيما ينزل عليك من الوحي الذى فيه عظة وذكري لقوم يعقلون ، لعل بصائرهم تستنير وطباعهم ترق ، وقلوبهم ترعوى عن غيرها ، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » .

(أهذا الذى يذكر آختكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون) أى ويقولون استنكاراً وتعجباً : أهذا الذى يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم ؟ وكيف يعجبون من ذلك وهم كافرون بالله الذى خلقهم وأنعم عليهم ، ويبيده نفعهم وضرهم وإليه مرجعهم ؟ قال الزجاج يقال فلان يذكر الناس أى يفتابهم ويذكرهم بالعيوب ، وفلان يذكر الله أى يصفه بالتعظيم ويثني عليه .

وخلاصة ذلك — كيف يعجبون من نبز آلهتهم بالسوء ، وهم قد كفروا بربهم الذى برأهم وصورهم فأحسن صورهم ، وإليه مرجعهم فيحاسبهم على النقيير والقطمير .

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩)
بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠)
وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) .

شرح المفردات

العجل والعجلة : طلب الشيء قبل أوانه ، والمراد بالإنسان : هذا النوع وقد جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق من العجل مبالغاً كما يقال للرجل الذكي هو نار تشتعل ، ويقال لمن يكثر منه الكرم : فلان خلق من الكرم ، قال المبرد : خلق الإنسان من عجل : أى إن من شأنه العجلة كقوله : « خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ » أى ضعفاء ، والآيات هى آيات النعم التى هددهم بوقوعها وإراعتهم إياها : إصابتهم بها ، والمراد بالوعد قيام الساعة ، لا يكفون : أى لا يمتنعون ، بقتة : أى فجأة ، تبهتهم : أى تدهشهم وتحيرهم ، يُنظرون : أى يمهلون ويُؤخرون ، حاق : حل ونزل .

المعنى الجملى

بعد أن بين جلّت قدرته أنه كلما آتى المشركين آية كفروا بها ، وكلما توعدهم بالمعذاب كذبوا به وقالوا تهكأ وإنكاراً : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ - ففى على ذلك بنهيهم عن العجلة وبيان أن ما أوعدوا به آت لا محالة ، ثم أرشد إلى أن العجلة من طبيعة الإنسان التى جبل عليها ثم ذكرهم بجهلهم بما يستعجلون ، فإنهم لو عرفوا كنه ما طلبوا ما دار بخلدكم ذلك المطلب .

وفى هذا تسمية لرسوله صلى الله عليه وسلم كما سلاه بأن الاستهزاء به وبما أتى به ليس بدعاً من المشركين . فكثير من الرسل قبله أودوا واستهزئ بهم ، وكان النصر آخراً حليفهم وحق الملاك بالمكذبين ، فانتظر لهؤلاء يوماً يحل بهم فيه مثل ما حل بمن قبلهم وقل لهم : انتظروا إنا منتظرون .

روى أن الآية نزلت فى الضر بن الحارث ، وهو القائل : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

الإيضاح

(خالق الإنسان من عجل) أى إنه نعالى فطر هذا النوع على العجلة ، وجعلها من سجيته وجبته ، فليس بعجيب من المشركين أن يستعجوا عذاب الله ونزول نعمته بهم ، وقد كان من الحق عليهم أن يتلثثوا قليلا فإن الله سينزل بهم من سخطه مثل ما أنزل بالمكذابين قبلهم ، ويحل بهم من العذب ما لا قبل لهم بدفعه ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(سائرنيكم آياتي فلا تستعجلون) أى إن نعى ستصميمكم لاجلته ، فلا تستعجلوا عذابي واصبروا حتى يأتى وعد الله ، إن الله لا يخلف الميعاد .
وقد نهى الإنسان عن العجلة مع أنها ركبت فى طبيعته ، من قبل أنه ولى المقدره التى يستطيع بها تركها وكف النفس عنها .

ثم حكى عنهم بعض ما يستعجلون فقال :

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقولون للنبي صلى الله عليه وسلم ولمن معه من المؤمنين الذين يتنون الآيات المنبئة بقرب الساعة ونزول العذاب بمن كفر بها استهزاء : متى يجيئنا هذا العذاب الذى تعدوننا به إن كنتم صادقين فى وعدهم ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الذين يتنون الآيات القرآنية المنذرة بمجيء الساعة وقرب حضور العذاب .

وهذا منهم استبطاء للموعود به يراد به إنكار وقوعه وأنه لن يكون البتة .

ثم بين شديد جهلهم بما يستعجلون وعظيم حماقتهم لهذا الطرب فقال :

(لويعلم الذين كفروا حين لا يكونون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون) أى لويعلم هؤلاء الكفار المستعجلون ماذا أعد لهم ربهم من البلاء حين تفتح وجوههم النار وهم فيها كالخون ، فلا يستطيعون ردها عن تلك الوجوه . ولا يدفعونها بأنفسهم عن الظهور ، ولا يجدون ناصرا ينصرهم وينقذهم من ذلك

العذاب - لما أقاموا على كفرهم برهيم ولسارعوا إلى التوبة منه . ولما استعجلوا لأنفسهم هذا النكال والوبال .

وإنما خص الوجود والظهور لأن مس العذاب لهما أعظم موقعا .

ولما بين شدة العذاب في ذلك اليوم بين أن وقته لا يكون معلوما لهم فقال :
(بل تأتيهم بغنة فتبتهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) أى بل تأتيهم الساعة وهم لأمرها غير مستعدين ، فتدعهم حائرين لا يستطيعون حيلة في ردها ، ولا منصرف عما يأتيهم منها ، ولا هم يمهون لتوبة ولا للتقديم معذرة فقد فات ما فات وأحاط بهم ما كانوا به يستهزون .

وإنما لم يعلم الله عباده وقتها لما في ذلك من فائدة ، فإن المرء يكون مع جهله بها أشد حذرا وأقرب إلى التلافي وانتهاز الفرصة .

ثم سلى رسوله عن استهزائهم به فقال :

(ولقد استهزئ برسلى من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزون)
أى ولقد استهزئ برسلى من رسلنا الذين أرسلناهم قبلك إلى أممهم ، ففزل بالذين استهزؤا بهم العذاب والبلاء الذى كانت الرسل تنوِّفهم نزوله ، وإن يعدوا أن يكون أمر هؤلاء الكفار كأم أسلافهم من الأمم المكذبة لرسلى ، فينزل بهم من عذاب الله وسخطه باستهزائهم مثل ما نزل بمن قبلهم ، فانتظر لهم عاقبة وخيمة كعاقبة أولئك ، وسيكون لك النصر عليهم .

ونحو الآية قوله : « وَاتَّخَذَ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَتَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ » .

قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ

أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ
 عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ
 الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمْءُ الدُّعَاءَ إِذَا
 مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا
 إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ
 نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا
 حَاسِبِينَ (٤٧) .

شرح المفردات

يَكْفُوكُمْ : يحرسكم ويحفظكم قاله ابن عباس ، من الرحمن : أى من بأسه وعقابه
 لئلا تستحققونه ، من دوننا : أى من غيرنا . يصحبون : أى يجارون من عذابنا :
 تقول العرب أيا لك جار وصاحب من فلان : أى وبحير منه واختاره الطبرى ، نفحة :
 أى قسط ونصيب ضئيل ، حبة الخردل : مثل فى الصغر ، حاسبين : أى عاذين محصين .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن الكافرين فى الآخرة لا يستطيعون أن يمنعوا عن
 وجوههم النار ولا عن ظهورهم ، وأنه سيكون لهم من الأحوال ما لم يكن يخطر لهم ببال
 أعقبه ببيان أنه لولا أن الله قدر لهم السلامة فى الدنيا وحرسهم إلى حين لما بقوا
 سالمين ، وأنه مع إتمامه عليهم ليلا ونهارا بالحفظ والحراسة - هم معرضون عن الدلائل
 الدالة على أنه لاحافظ لهم سواء ، وأنه قد كان ينبغى لهم أن يتركوا عبادة الأصنام
 التى لاحظ لها فى شيء من ذلك . فهى لا تستطيع أن تحفظ نفسها من الآفات ،

فضلا عن منع بأس الله إن حل بهم ؛ ثم أردف ذلك ببيان أن الذي غرهم وحمهم على الإعراض عن ذلك هو طول الأمد حتى نسوا نعيدهم وجهوا مواقع النعمة ، وقد كان لهم في نقص الأرض من أطرافها وفتح المسامير لها عبرة أيما عبرة ، فهاهم يرون محمدا صلى الله عليه وسلم وأتباعه يفتحون البلاد والقرى حول مكة ويدخلونها تحت راية الإسلام ويقتلون الرؤساء والعشائر من المشركين ، فمن حقهم أن يفكروا في هذا مديا ويرعوا عن غيرهم ويعلموا آثار قدرتنا وأن جندنا هم الغالبون ، ثم قفى على ذلك ببيان أن وظيفة الرسل هي الإنذار والتبليغ ، وبأس عليهم الإلزام والقبول ، فإذا كانت القلوب متعجزة ، والآذان صماء ، فإذا تجدى العظة وماذا ينفع النصيح ، ولئن أصابهم القاتل من عذاب الله لئن نادوا بالويل والتبوء ، واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين - ثم قفى على ذلك ببيان أن النار الآخرة لا ظلم فيها ولا محاباة ، فلم يمحاسب فيها على الجنيل والحقير ، فهناك تنصب موازين العدل ويجازى كل امرئ بما قدم من خير أو شر : « مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

الإيضاح

(قل من يَكُفِّرُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ) أى سل أيها الرسول أولئك المستهزئين سؤال إنكار وتوبيخ ، من يستطيع أن يحفظكم من الرحمن إذا أراد أن ينزل بكم بأسه وعذابه الذى تستحقونه ؟

والخلاصة - من يحفظكم بالليل إذا نمت ، وبالنهار إذا تصرفتم في أمور معاشكم من عذاب الرحمن إن نزل بكم ، ومن بأسه إذا حل بسحتكم ؟

وفى ذكر (الرحمن) إيما وتنبية إلى أنه لا حفظ لهم إلا برحمته ، وإلى أن بأسه أليم شديد ، وإلى أنه قد عذبهم من غيب رحمة قسوته ، جزاء وفاؤا بما دسوا به أنفسهم من فاسد الطوايا ، وسىء الأعمال .

ثم ذكر أنهم قد غفلوا عن الكالى الحافظ فقال :

(بل هم عن ذكر ربهم معرضون) أى إن هؤلاء القوم قد ألهتهم النعم عن المنعم فلا يذكرون الله حتى يخفوا بأسه ، أو يعدوا ما كانوا فيه من الأمن والدعة كلاءة وحفظا لهم ، حتى يسألوا عن الكالى الحافظ .

وخلاصة ذلك - إنهم على وجود الدلائل العقلية والنقلية الدالة على أنه تعالى هو الكالى الحافظ - معرضون عنها ، لا يتأملون فيها .

وفى ذكر (الرب) إيماء إلى أنهم خاضعون لسلطانه ، وأنهم فى ملكوته وتديره ، وجميل رعايته وتربيته ، وهم على ذلك معرضون ، فهم فى الغاية القصوى من الضلال وفى النهاية من الجهل والغباء .

ثم انتقل من وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهة لا تنضر ولا تنفع فقال :

(أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ؟) أى بل هؤلاء المستعجلى عذاب ربهم آلهة تمنعهم منه إن نحن أنزلناهم بهم ، وتدفع عنهم بأسنا إن حل بساحتهم ؟ .
ومجمل ذلك - إن آلهتهم لا تمنعهم بأسنا إن أردنا .

ثم وصف تلك الآلهة التى اتخذوها بالضعف فقال :

(لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) أى وكيف تستطيع آلهتهم أن تمنعهم منا وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا دفع ما ينزل بهم من البلاء ، ولا هم يصحبون منا بنصر ، فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم .

والخلاصة - إنهم فى غاية العجز ، فكيف يتوهم فيهم ما يتوهمون من القدرة والسطان ، ويدينون لهم بالخضوع والعبادة .

ثم بين سبحانه تفضله عليهم مع سوء ما أتوا به من الأعمال فقال :

(بل متعنا هؤلاء وآباهم حتى طال عليهم العمر) أى إن الذى غرهم وحلهم على

ما هم فيه من الضلال أنهم مُتَعَمَّعُوا في الحياة الدنيا ونعموا بها وطال عليهم العمر حتى اعتقدوا أنهم على شيء .

وقصارى ذلك — إنهم طالت أعمارهم وهم في الغفلة ففسدوا عهدنا ، وجهلوا مواقع نعمتنا فاغترروا بذلك ولم يعرفوا موضع الشكر .

ثم بين لهم سوء مغيبهم فقال :

(أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟) أى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون للعذاب آثار قدرتنا في إتيان الأرض من جوانبها ، فقتلناها والمؤمنين وزدناها في ملكهم واقتطعناها من أيدي المشركين ؟ فقد تم لهم فتح البلاد التى حوالى مكة وقتل رؤسائها وإزالة دولة الشرك وأهلها منها ، ألا يفكرون فى هذا فيكون لهم فيه مزدجر لو كانوا يعقون ؟ .

والخلاصة ألا يعتبرون ويحذرون أن ينزل بهم بأسنا كما أنزله بسواهم ؟ .

ثم ونخهم وأنهم على غفلتهم عن الحق بعد وضوحه فقال :

(أفهم الغالبون ؟) أى أفهم الغالبون أم نحن ؟ أى أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم إياه يتوهمون غيبتهم ؟ .

وبعد أن بين هول ما يستعجلون ، وحلهم السيئة حين نزوله بهم ، ثم نعى عليهم جهلهم وإعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكأؤهم من طوارق الليل وحوادث النهار ، أمر رسوله أن يقول لهم : إن ما أخبركم به جاء به الوحي الصادق فقال :

(قل إنما أنذركم بالوحي) أى إني إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة وشديد أهوالها — بالوحي الصادق الناطق بحصوله وفضاعة أهواله ، وقد أمرني ربي بذلك ، وهأنذا قد قمت بم أمرني به ، فإن لم تجيبوا داعي الله وتقبلوا ما دعوتكم إليه فعيبك المكال والوبال لأعلى .

ثم أردف هذا بأن الإنذار مع مثل هؤلاء لا يجدى فتيلًا ، فحاله إلا حال الصم الذين لا يسمعون دعوة الداعي فقال :

(ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون) أى فامشهم إذ لم يفتنعوا بما سمعوا من الإنذار على كثرتة وتتابعه إلا مثل الصم الذين لا يسمعون شيئاً ، إذ ليس الغرض من الإنذار السماع لحسب ، بل العمل بما يسمع بالإقدام على فعل الواجب والتحرز من المحرم ومعرفة الحق ، فإذا لم يحصل شيء من هذا فلا جدوى فى السمع وكان لم يكن .
 وبالإخلاصة — إن الكافر بالله لا يوجه همه إلى العظة بما فى كتابه من أنواع حتى يقطع عما هو عليه مقيم من الضلال ، بل يعرض عن التفكير فيها فعل الأعم الذى لا يسمع ما يقال له حتى يعمل به .
 ثم بين سرعة نأثرهم من العذاب حين مجيئه إثر بيان عدم نأثرهم به حين يحى خبره فقال :

(ولئن مستهم نفخة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين) أى ولئن أصاب هؤلاء المستعجدين للعذاب أدنى قسط من عقاب ربك بكفرهم به وتكذيبهم برسوله — ليقولن إنا كنا ظالمين لأنفسنا بعبادتنا الآلهة والأنداد وتركنا عبادة الذى برأنا وأنعم علينا ، وجحدنا لما يجب علينا من الشكر له بالإخلاص فى عبادته .

وبالإخلاصة — إنهم يوم القيامة حين يسهم العذاب يدعون على أنفسهم بالويل والنبور وعظائم الأمور ويقولون هلاكنا ، إنا ظلمنا أنفسنا بكفرنا بمن خلقنا وخضوعنا لمن لا يضر ولا ينفع ، ويندمون على ما فرط منهم ، ولات ساعة مندم .
 ثم بين الأحداث التى ستقع حين إتيان ما أنذروا به فقال :

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) أى ونحضر يوم القيامة الموازين العادلة التى توزن بها صحائف الأعمال ، وهذا قول أئمة السلف ، وقال مجاهد وقتادة والضحاك المراد من الوزن العدل بينهم ، فلا يظلم عباده مثقال ذرة ، فمن أحاطت حسناته بسينئاته ثقنت موازينه : أى ذهب حسناته بسينئاته ، ومن أحاطت سيئاته بحسناته خفت موازينه : أى ذهب سيئاته بحسناته .

(فلا تظلم نفس شيئا) أى فلا تظلم أى نفس شيئا من الظلم ، فلا ينقص ثوابها
لدى تسديقه ، ولا يزداد عذابها الذى كان لها على قدر ما دست به نفسها من
سوى الأعمال .

(وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها) أى وإن كان العمل الذى فعلته
النفس صغيرا مقدار حبة الخردل جازينا عليه جزاء وفاقا ، سيئا كان أو حسنا .
(وكفى بنا حاسبين) أى وحسب من شهدوا ذلك الموقف بنا حاسبين لأعمالهم
محضين لها ، لأنه لا أحد أعيد بهم عافهم وما سلف منهم فى الدنيا من صالح أو سيئ منها .
ولا يخفى ما فى الآية من التحذير وشديد الوعيد للكافرين على ما فرطوا فى جنب
الله ، فإن الحاسب إذا كان عينا بكل شئ ولا يعجز عن شئ كان جديرا بالمقابل
أن يكون فى حذر وخوف منه .

نزول التوراة على موسى عليه السلام

وَنَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨)
الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرُ
مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ؟ (٥٠) .

شرح المفردات

الفرقان : هى التوراة ، وهى الضياء والموعظة ، وكانت فرقا لنا لأنها تفرق بين الحق
والباطل ، وكانت ضياء لأنها تدير طريق الهدى للمؤمنين ، وكانت موعظة لما فيها من
عبرة للمسلمين سبل النجاة ، يخشون ربهم : أى يخشون عذابه ، مشفقون : أى
خائفون مبارك : أى كثير الخير غزير النفع .

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : إنما أنذركم بالوحى - أردفه ببيان أن هذه سنة الله فى أنبيائه ، فكلهم قد آتاهم الوحى وبلغهم من الشرائع والأحكام ما فيه هداية للبشر وسعادة لهم فى دنياهم وآخرتهم .

الإيضاح

(واتقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) أى قسما لقد آتيناها كتابا جامعاً لأوصاف كلها ، مدح ونحو ، فهو كتاب فارق بين الحق والباطل ، وضيء يستضاء به فى ظلمات الجهل والفوضى ، وعظة يتمتع بها من يتعظ ويتذكر بها ما يجب لله من اعتقاد وعمل وما ينبغى سلوكه من أدب وفضيلة .

ثم ذكر أوصاف المتقين فقال :

(١) (الذين يخشون ربهم بالغيب) أى إن المتقين يخافون عذاب ربهم وهو غائب عنهم غير مرئى لهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَسْبٍ مُنِيبٍ » وقوله : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

(٢) (وهم من الساعة مشفقون) أى وهم من عذاب يوم القيامة وسائر أحوالها خائفون وجلون .

وبعد أن ذكر فرقان موسى وكان أعرب يشاهدون تمسك اليهود به - حثهم على التمسك بالكتاب الذى نزل على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

(وهذا ذكر مبارك أنزلناه) أى وهذا القرآن الذى أنزلناه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ذكر لمن تذكر به ، وموعظة لمن اتعظ بها ، وهو كثير النفع والخير لمن اتبع أوامره وانتهى بنواهيها .

وبعد أن أبان صفة هذا الكتاب وبخهم على إنكارهم له فقال :
(أفأنتم له منكرون ؟) أى أفبعد أن استبان لكم جليل خطره وعظيم أمره
تذكرون وتقولون هو أضغاث أحلام ، بل افتراء ، بل هو شاعر فمبأتنا بآية كما
أرسل الأولون .

وقد يكون المعنى — كيف تذكرون كونه منزلاً من عند الله ؟ وأنتم من أهل
اللسان تدركون مزايا الكلام ولطائفه ، وتفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيركم
وفيه شرفكم وصيتكم .

وخلاصة ذلك — أفبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة ، أنتم تذكرون أن
منزل من عند الله ؟ فهذا ما لا يستسيغه عقل راجح ولا فكر رصين ، فمثل هذا
فى غاية الوضوح والجلالة .

حجاج إبراهيم لأبيه وقومه ودعوتهم إلى التوحيد

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُسُودَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا
آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ (٥٥) قَالِ بَلِ رَّبُّكُمْ
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)
وَتَاللَّهِ لَا كِيدَ لَأَصْنَاءِكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلْنَاهُمْ جُذُوعًا
إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) .

شرح المفردات

الرشد : هو الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا والاسترشاد بالنواميس الإلهية ، التماثيل : واحدها تمثال وهو الصورة المصنوعة على شبه مخلوق من صنع الله كطائر أو شجر أو إنسان ؛ والمراد بها هنا الأصنام سماها بذلك تحقيرا لشأنها ، والمعكوف على الشئ : ملازمته والإقبال عليه ، بالحق : أى بالشيء الثابت في الواقع ، اللاعبين : أى الهازنين ، فطهرن : أى أنشأهن ، من الشاهدين : أى المتحققين بحجته المثبتة بالبرهان ، والسكيد : الاحتياط في إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه ، والمراد بالمبالغة في إلحاق الأذى بها ، جذاذ : أى قطعاً . من الجذ ، وهو القطع .

الإيضاح

(وقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنه به عليم) أى وقد آتينا إبراهيم مفيه صلاحه وهداه من قبل موسى وهرون ووقفناه للحق وأضأنا له سبيل الرشاد . وأنقذناه من بين قومه من عبادة الأصنام ، وكنه عليم بأنه ذوقين وإيمان بالله وتوحيد له لا يشرك به شيئاً ، فهو جامع لأحسن الفضائل ومكارم الأخلاق وجميع الصفات ، وقال الفقراء : أعطيناه هداً من قبل النبوة والبلوغ اه . أى وقفناه للنظر والاستدلال لما جنّ عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم ، وعلى هذا جرى كثير من المفسرين ، (إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟) أى آتينا إبراهيم حين فل لأبيه وقومه وهم مجتمعون : ما هذه الأصنام التي تقيمون على عبادتها وتعظيمها ؟ .

وقد أراد عليه السلام بهذا السؤال تنبيه أذهانهم إلى التأمّل في شأنها ، وتحفيز أمرها ، متجاهلاً حقيقة أنها ، وكأنه يرمي بذلك إلى أنهم لو تأملوا قليلاً لأدركوا أن مثل هذه الأحجار والخشب لا تنفع عنهم قلاً ولا كثيراً .

ولما لم يجدوا ما يعول عليه في تعرف حقيقتها لجئوا إلى التثبت بالتقليد دون إقامة الحجة والبرهان .

(قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) أى قال آزر وقومه له : إنا وجدنا آباءنا يعبدون هذه الأوثان فسرنا على نهجهم واقتفينا أثرهم ولا حجة لنا غير ذلك .

وخلاصة مقالهم : ليس لنا برهان على صحة ما نفعل ، وإنما نحن مقبلون للأباء والأجداد ، وكفى بهذا سبّة لهم ، فإن الشيطان قد استدرجهم وكادهم حتى عمروا لها جباههم وجدّوا في نصرتها ، وجادلوا أهل الحق فيها - وما كان أجدرهم أن يتواروا خجلاً وحياء ولا يقولوا مثل هذا .

والتقليد هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز ، والحبل الذي يتشبث به كل غريق ، وهكذا يجيب التقليد من أهل الملة الإسلامية إذا أنكر عليهم العالم بالكتاب والسنة العمل بالرأى المدفوع بالدليل - بهذا قال إمامنا الذى وجدنا آباءنا له مقبلين - وبرأيه آخذين وكأنه يقول :

وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت وإن ترشد غزيرة أرشد
وقد أجابهم إبراهيم ببيان قبح ما يصنعون ، وبكثمتهم على سوء ما يفعلون .
(قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين) أى قال لهم : لقد كنتم أيها القوم أنتم وآباؤكم بعبادتكم إياها في ضلال بين ، وجور واضح عن سبيل الحق لمن تأمله بلبه ، وفكر في عقله .

وخلاصة هذا - إن المقبلين ومن قبلوا في ضلال بين لا يخفى على من لديه أدنى مُسَكَّة من عقل ، فالغريقان لا يستندان إلا إلى هوى متبع ، وشيطان مطاع وقد أحسن من قال :

بأبي الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

وفي ذلك إيماء إلى أن الباطل لا يصير حقاً بكثرة المستمسكين به .

وقد أجابوه إجابة مستفهم متعجب مما يسمع ويرى .

(قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ؟) أَيْ قَالُوا حِينَ سَمِعُوا مَقَالَتَهُ
مُسْتَعْبِدِينَ أَنَّهُمْ فِي ضَلَالٍ وَمُتَعَجِبِينَ مِنْ تَضْيِيلِهِ إِيَّاهُمْ : أَجَادَ أَنْتَ فِيمَا تَقُولُ أَمْ أَنْتَ
لَاعِبٌ مَزَاحٍ ؟ فَإِنَّا لَمْ نَسْمَعْ بِمِثْلِهِ مِنْ قَبْلِ .

وختلاصة هذا -- إناهم لما سمعوا منه ما يدل على تحقير آلهتهم وتضييله إياهم
وشاهدوا منه الجد في القول والغضة فيه ، طابوا منه الدليل على صدق ما يقول إن
كان جادا ، ثم ارتقوا من هذا إلى بيان أنه هازل لاعب كما هو دأبه وعادته من
قبل ولا يقصد بذلك إظهار حق البتة .

فردّ عليهم مستقلا من تضليلهم في عبادة الأوثان إلى بيان الحق وذكر
أنستحق للعبادة .

(قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ) أَيْ قَالَ لَهُمْ : بَلْ
جِئْتُمْ بِالْحَقِّ لَا اللَّعِبِ -- إِنْ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ مِنْ أَنْشَأِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى
غَيْرِ مِثَالٍ يَحْتَدَى وَأَنْتُمْ مَعْمُورُونَ بِجَمِيلِ عَطْفِهِ ، وَعَظِيمِ جُودِهِ وَبَرِّهِ .

وصفوة هذا -- إِنْ الْجَدِيرُ بِالْعِبَادَةِ هُوَ مَنْ رَبَّاكُمْ تَحْتَ ظِلَالِ عَطْفِهِ ، وَأَنْعَمَ
عَلَيْكُمْ بِجَزِيلِ بَرِّهِ وَلَطْفِهِ ، وَأَوْجَدَكُمْ وَأَوْجَدَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْمَدَمِ ، لَا مَنْ
كَانَ بَعِزْلَ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ .

وفى هذا إرشاد إلى أنه ينبغي لهم أَنْ يَرْعَوْا عَنْ غِيهِمْ وَيَعْلَمُوا مَنْ يَسْتَحِقُّ
أَنْ يَعْبُدُوهُ وَيَخْضَعُوا لَهُ ، وَبِذَلِكَ يَهْتَدُونَ إِلَى الطَّرِيقِ السَّوِيِّ .

ثم ختم مقاله بنفي اللعب والخرزل عن نفسه فقال :

(وَأَنَا عَلَى ذَاكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) أَيْ وَأَنَا أَدْلَى عَلَى مَا أَقُولُ بِالْحُجَّةِ كَمَا تَصَحِّحُ
الدَّعْوَى بِالنَّشْهَةِ ، وَأُبْرهن عَلَيْهِ كَمَا تَبِينُ الْقَضَايَا بِالْبَيِّنَاتِ ، فَلَسْتُ مِثْلَكُمْ أَقُولُ
مَالَا أَقْدِرُ عَلَى إِثْبَاتِهِ ، فَإِنَّكُمْ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَى الْإِحْتِجَاجِ عَلَى مَذْهَبِكُمْ ، وَلَمْ تَزِيدُوا عَلَى
أَنْ تَقُولُوا إِنَّ وَجْدَنَا بَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ .

وقصارى ما أقول : لست من اللاعبين الهازلين ، بل من العانين بذلك

بالبراهين القاطعة ، والحجج الساطعة كالشاهد الذي يكون قوله الفصل في إثبات الدعوى ، وإحقاق الحق .

وبعد أن أقام البرهان على إثبات الحق أنبعه بالتهديد لهدم البطل ومحو آثاره وأنه سينقل من الحاجة القوية إلى تغيير لمفكر بالفعل ثقة بالله ومحاماة عن دينه ، جمعا بين القول والعمل .

(وتالله لا أكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) أى وتالله القوى العظيم لأجتهن في كسر أصنامكم وإلحاق الأذى بها بعد أن تذهبوا إلى عيدكم ، وقد فعل ذلك عليه السلام يرشدهم إلى ما هم فيه من الضلال ، ويبين لهم خطاهم على الألف أسلوب وأتم وجه .

وفي التعبير بـ أكيدن إيذان بصعوبة انتهاز الفرصة وتوقفها على استعمال الحيلة في كل زمان ، ولا سيما زمن تمرد على عتوه واستكباره ، وقوة ساطعانه ، وتهالكه على نصرته دينه .

فل مجاهد وقتدة : قال إبراهيم هذه المقالة سرا من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد ففُشده عليه وول إننا سمعنا فتى يذكركم يقال له إبراهيم .
وقال الشنقي : كان ضم في كل سنة مجمع عيد وكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم ، فلما كان ذلك العيد قال آزر : يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبت ديننا ، نفرج معهم ، ولما كان ببعض الطريق أتى بنفسه وقال إني سقيم أشتكى برجلي ، فلما مضوا نادى في آخرهم وقد بقي فيهم ضعفاء الناس : تالله لا أكيدن أصنامكم ، فسمعوها منه ، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهى فى بهو عظيم ، وكان مستقبل هذا البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه والأصنام بعضها إلى جنب بعض ، كل صنم يليه أصغر منه إلى باب البهو ، وإذا هم قد جمعوا ضامما فوضوه بين يدي الآلهة وقالوا إذا رجعنا وباركت الآلهة عليه أكفنا منه ، فلو نظر إبراهيم إليهم وإلى ما بين أيديهم من الطعنه نال لهم

مستعزنا : ألا تأكلون ، فلما لم يجيبوه دل لهم : ما لكم لا تلتقطون ؟ وراغ عليهم ضربا باليمين ، وجعل يكسرهن بفأس فى يده حتى إذا لم يبق إلا الصنم الأكبر علق الفأس فى عنقه ثم خرج فذابك قوله :

(فجعلهم جذذا إلا كبيرا لهم) أى فتولوا فأتى إبراهيم الأصنام فجعلهم قطعاً قطعاً إلا كبيرا لهم لم يكسره .

(لهم يرجعون) أى لعل هؤلاء الضلال يرجعون إلى الكبير كما يرجع إلى العالم فى حل المشكلات ، فيقولون له : ما هؤلاء مكسورة ومالك صحيحا والفأس فى عنقك أو فى يدك ؟ وحينئذ يستبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر ويظهر لهم أنهم فى عبادتهم على جهل عظيم .

وقد كان هذا بناء على ظنه فى أمرهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم فى آهتهم وتعتيمهم لها .

فلما عادوا إلى أصنامهم فوجدوها على تلك الحال .

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥)

شرح المفردات

يذكُرهم : أى يعيهم ويسبهم ، على أعيُن الناس : أى على رؤوس الأشهاد فى الملأ . يشهدون : أى بغيره أو قوله ، فرجعوا إلى أنفسهم : أى ففكروا وتدبروا .

الظالمون : أى الظالمون لأنفسكم بغفلتكم عن آلهتكم وعدم حفظكم إياها ، ويقال
نكسته : أى قلبته فجعت أعلاه أسفله ، والمراد أنهم بعد أن أقروا أنهم ظالمون انقلبوا
من تلك الحال إلى الكبر والجلد بالباطل .

الإيضاح

(قالوا من فعل هذا بالهتنا ؟) أى قال قوم إبراهيم على سبيل التوبيخ والتأنيب
حين رأوا آلهتهم قد صارت جذازا إلا انذى علق فيه إبراهيم الفأس : من كسر
هذه الآلهة وجعلها هكذا ؟

وفى تعبيرهم بالآلهة دون الأصنام تشنيع ومبالغة فى اللوم والتعنيف .
(إنه لمن الظالمين) أى إنه لمن زمرة الذين ظلموا أنفسهم وجروا على إهانة
هذه الآلهة ، وهى الخفية بالإعظام والتكريم .

(قالوا سمعنا ففى بذكرهم يقال له إبراهيم) أى قال بعض منهم من سمع قوله
تالله لا كيدين أصنامكم : سمعنا ففى يعيبهم ويستهزئ بهم ولم نسمع أحدا يقول ذلك
غيره ، وإنى لأظن أنه صنع ذلك بهم .

(قالوا فأتوا به على أعين الناس) أى قال أولئك القائلون من فعل هذا بالهتنا :
إذا كان الأمر كما ذكرتم فأتوا به برأى من الناس ومسمع .

(اعلمهم يشهدون) أنه الذى فعل ذلك ، فتكون شهادتهم عليه حجة لنا .
(قالوا أنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم ؟) أى فلما أتوا به قالوا له أنت الذى
كسر هذه الأصنام وجعلهم جذازا ؟ وقد طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على
بيدائه وهم مقتنعون بصحة هذه الجريمة فى زعمهم ، فما كان منه إلا أن بادرهم
بما أدهشهم حتى تمنوا الخلاص منه فقال :

(بل فعله كبيرهم هذا) أى بل الذى فعل هذا هو الصنم الأكبر الذى
لم يكسر .

وإيضاح هذا — أن إبراهيم عليه السلام لما رأى تعظيمهم لهذا الصنم أشد من تعظيمهم لساثر ما معه من الأصنام غضب أشد الغضب وأسند إليهم الفعل الصادر منه هو — من قبل أنه هو الذى حمله على ذلك ، وهو يومئذ بذلك على مقصده وهو إلزامهم الحجة على الخلف وجه وأحسنه ، مع حميتهم على التأمل فى شأن آلهتهم .
ويجمل كلامه — إن شديد غضبى من تعظيمكم له حملنى على أن أفعل هذا ، والفعل كما ينسب إلى المبشر له ينسب إلى النبأث عليه : فهذا الصنم الأكبر قد كان السبب فى استهانتى بهم وتحطيمى إبراهيم .

(فسألوه إن كانوا ينطقون) أى فسألوه عن كسرهما ليخبروك به إن كانوا ممن ينطق على زعمكم أنهم آلهة تنفع وتضر .
وقد كانت مقالة إبراهيم عليه السلام قوية الحجة شديدة الوقع فى نفوسهم ، وكأنما ألقمهم حجرا ، وذلك ما أشار إليه بقوله :

(فرجعوا إلى أنفسهم) أى فرجعوا على أنفسهم بالملامة ، إذ عاها أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على إلحاق الضرر بمن ألحق به الأذى — يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له ، وإذا فكيف يستحق أن يكون معبودا ؟ .

ثم بين ملامتهم لأنفسهم بقوله :

(فقالوا إنكم أنتم الظالمون) أى قتال بعضهم بعض : إنكم أنتم الظالمون بعبدة ما لا ينطق ، وما هذا منكم إلا غرور وجهل بما ينبغي أن تكون عليه حال المعبود .
ثم أبان أنهم أركسوا بعدئذ ورجعوا عن فكرة سليمة لا غبار عليها بوصفهم أنفسهم بالظلم إلى فكرة خاطئة وهى الحكم بصحة عبادتها مع اعترافهم بأن حافهم دون حال الحيوان . فلا ينبغي لعاقل أن يعبدها فقال :

(ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) أى لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا إنما اتخذناهم آلهة مع علمنا بأنهم لا ينطقون ولا يتكلمون فكيف تأمرنا

بِسْوَاطِهِ . وَتَمَافِلْ يَنْطَقُونَ وَلَمْ يَقُلْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضا ، من قبل أن نتيجة السؤال الجواب . وأن عدم نطقهم أبلغ في تبكيتهم .

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦)
أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ
وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا
عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَارْأَوْا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْآخِسِينَ (٧٠) .

شرح المفردات

أف : كلمة تدل على أن قائلها متعجب متألّم من أمر . والتكيد :
المكر والخديعة .

المعنى الجملى

بعد أن أفرو على أنفسهم بأن لا فائدة في آلهتهم ، فمت لإبراهيم الحجة عليهم
فويضحهم على عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، إذ هذا ما لا ينبغي لعاقل أن يقدم عليه ،
و بعد أن دحضت حجّتهم وبن عجزهم انقلبوا إلى العناد واستعمال القوة الحسية إذ
أعيتهم الحجة فقالوا حرقوا إبراهيم بالنار وانصروا آلهتكم التي جعلها جذذا ، ولكن
الله سامه من كيدهم وجعل النار بردا وسلاما عليه .

الإيضاح

(قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ؟) أى قال إبراهيم
مبكثا لهم : أفتعبدون غير الله معبودات لا تنفعكم شيئا فتعلقوا رجاءكم بها ، ولا تضرركم
شيئا فتخافوها .

(أف لكم ولما تعبدون من دون الله) أى : لكم وقبحا لمعبوداتكم التى اتخذتموها من دون الله .

(أفلا تعقلون ؟) أى : فلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الذى لا يروج إلا على جاهل فاجر ، وأنتم الشيوخ الذين بلّوا الزمان حيوه ومره وحسكتهم تجارب الأيام . فمن حَقِّكم أن تعودوا الرأى ونقبوه ظهرا لبطن . اعلمكم ترشدون بعد الضلال ، وتبتدون بعد الغنى والفقر .

ولما بان عجزهم وحصر الحق لجئوا إلى الغافلة واستعمل القسوة ، وذلك ما أشار إليه بقوله :

(فأنما حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) أى قال بعضهم لبعض : حرقوا إلههم بالنار وانصروا آلهتكم إن كنتم ناصريها ، ولا تريدون خذلانها وترك عبادتها . ثم أبان سبحانه أنه أبطل كيدهم ودفع عنه هلاكه محققا بمعونته وتأييده فقال : (قلند يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) أى فأوقدوا له نارا ليحرقوه ثم ألقوه فيها . فقلنا للنار : يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم أى بردى بردا غير ضار به . روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما ألقى إبراهيم فى النار قال : اللهم إنك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد أعبدك .

(وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) أى وأرادوا بإبراهيم مكرا لا يصلح الأذى به فجعلناهم من ذوى الخسران والوبال إذ صار سعيهم فى إطفاء نور الحق قولا وفعلًا - برهانا على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل ، وأنهم استحقوا أشد العذاب .

وفى هذا القصص من العبرة - أن الجهاد نصرة الحق والفضيلة فيه الخير كل الخير ، وأنه مها صادم المرء فيه من آلام وأهوال فهى هينة نينة ، فلنجاهد إذا مثل ما جاهد إبراهيم ، فإن متنا أو قتلنا فإن ما يصيبنا فى سبيل الحق يكون لنا عزا وشرفا .

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسَقَيْنَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) .

شرح المفردات

لوط : هو ابن أخى إبراهيم : قاله ابن عباس . والأرض هى أرض الشام .
نافلة : أى عطية ومنحة ، حكما : أى نبوة ، القرية : هى سدوم التى بعث إليها لوط ، والخبائث : الأعمال الخبيثة التى يستفادها أرباب الفطر السائمة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أكرم به إبراهيم من نجاته من النار - قفى على ذلك ببيان أنه أخرجه من بين قومه مهاجرا إلى بلاد الشام وهى الأرض المباركة ، ثم وهب له من الذرية إسحق وابنه يعقوب عليهما السلام وكانا أهل صلاح وتقوى يقتدى بهما ويأتمر بأمرهما ، ثم أردف ذلك بذكر ما آتاه لوطا من العلم والنبوة وجعله يعرف عن مفاصل تلك القرية التى كان يقيم فيها بين ظهرائى أهلها . وقد أهلكهم الله جميعا وأنجاه هو وأهله وأدخله فى جنات النعيم ، وقرّبه إلى حضيرة قدسه ، وساحة رحمته .

الإيضاح

(ونجينا لوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) أى إنه تعالى أنعم عليه النعمة فأنجاه وأنجى لوطا معه إلى الأرض التى باركها بكثرة ما بعث فيها من الأنبياء

الذين انتشرت شرائعهم في أقاصي المعمور ، فهي أس الخيرات الدينية والديوية ،
كثيرة خصبها وأشجارها وثمارها وأنهارها .

وقد خرج إبراهيم من كوثي من أرض العراق ومعه لوط وسارة يتمس الفرار
بدينه والأمان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله ، ثم خرج
منها وجاء إلى مصر ، ثم رجع إلى الشام ونزل بفلسطين وترك لوطا بالموتفكة وهي
مسيرة يوم وليلة منها .

ثم ذكر ما أفاضه من النعمة على إبراهيم فقال :

(١) (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) أى ووهبنا لإبراهيم إسحق ولدا
ويعقوب ولد ولد ، عطية وفضلا لاجزاء مستحقا .

(٢) (وكلا جعلنا صالحين) أى وجعلنا كلا من إبراهيم وإسحق ويعقوب
مطيعين لأمرهم محتنين بحارمه .

(٣) (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) أى وجعلناهم أئمة يدعون الناس إلى دين
الله تعالى وإلى الخيرات بأمرنا وإذنتنا .

(٤) (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) أى وأوحينا إليهم فيما أوحينا أن افعلوا
إطاعات وتركوا المحرمات .

(٥ ، ٦) (ووقفم الصلاة وإيتاء الزكاة) أى وأوحينا إليهم أن أقيموا
الصلاة وآتوا الزكاة ، وقد خصهما بالذكر من بين سائر العبادات ، لأن الصلاة أشرف
العبادات البدنية ، والزكاة أفضل العبادات المادية ، والمال شقيق الروح ، ومجموع
العبادتين تعظيم الخالق والشفقة على المخلوق .

وبعد أن بين صنوف نعمه عليهم ذكر اشتغالهم بعبادته فقال :

(وكانوا له عابدين) أى وكانوا خاشعين لا يستكبرون عن طاعتنا وعبادتنا
ولا يخطر لهم ببال سواها .

وفي هذا إيماء إلى أنه تعالى حين وفي لهم بعهد الربوبية من الإحسان والإنعام وفؤاله بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة .

و بعد أن ذكر ما أنعم به على إبراهيم أتبعه بذكر ما أنعم به على لوط فقال :
(١) (وَلَوْطَا أَتَيْنَاهُ حِكْمًا) أى وآتيناه لوطا الحكم وهو حسن الفصل بين
الخصوم في القضاء .

(٢) (وَعَلَمًا) بأمر دينه وما يجب عليه الله من واجب الطاعة والإحسان إليه .
(٣) (وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ) أى ونجيناه من عذابنا
الذى أحلناه بأهل تلك القرية التى كانت تعمل خبيث الأعمال التى من أشنعها
إنيان البيوت من غير أبوابها .

ثم بين السبب الذى دعاهم إلى ذلك فقال :

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسَقِينَ) أى إن الذى حمدهم على ذلك وجراهم على
ارتكابهم أنهم كانوا خارجين عن طاعة الله منتهكين حرمانه ، قد دسّوا أنفسهم بقبائح
الأفعال والأقوال . فلا عجب إذا هم لجوا فى طفيانهم يعمهون .

(٤) (وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا) أى وجعلناه فى جملة من يستحقون رحمتنا واطفنا
بإدخاله جنتنا كما جاء فى الحديث الصحيح : « قال الله عز وجل للجنة : أنتِ رحمتى
أرحم بك من أشاء من عبادى » .

ثم ذكر علة هذا بقوله :

(إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الصَّالِحِينَ) الذين سبقت لهم منا الحسنى ، إذ كان ممن يعملون
بطاعتنا ، فيأتمرون بأمرنا ويتقون عن نهينا .

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ
الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ
سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) .

شرح المفردات

الكرب : الغم الشديد : والمراد به هذا العذاب النازل بقومه وهو الفرق بعد أن لقي منهم الأذى ، قوم سوء : أى منهمكين فى شرورهم وآثامهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصة إبراهيم وهو أبو العرب - أردفها بقصة نوح وهو الأب الثانى للبشر على المشهور من أن جميع الباقين بعد الطوفان من ذريته عليه السلام .

الإيضاح

(ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) أى واذا ذكر أيها الرسول نبأ نوح إذ نادى ربه من قبلك ومن قبل إبراهيم فسلطنا أن نهلك قومه الذين كذبوا الله فيه وتوعدهم به من وعيده ، وكذبوه فيما آتاهم به من الحق من عند ربه فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » وقال : « إِنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَ الصِّرُ » فاستجبنا له دعاءه ونجيناه وأهل الإيمان من ولده وأزواجه مما حل بالكاذبين من الفرق .

روى أنه بعث وهو ابن الأربعين ومكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، فذلك ألف وخمسون سنة كذا فى التحبير .
(ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى ونصرناه على القوم الذين كذبوا بحجبتنا وأدلتنا .

(إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) أى فأغرقناهم أجمعين ، لأنهم كانوا يسيئون الأعمال فيعصون الله ويخالفون أوامره ويتصدون لأذى نبيهم ويتواصون جيلا بعد جيل بمخافة أمره ورفع راية العصيان فى وجهه .

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخُكِّنَ فِي الْحَرثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ
وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا
وَعِلْمًا وَنَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩)
وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ
(٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا
فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ
وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) .

شرح المفردات

الحرث هنا : الزرع ، والنفس : رعى المشية في الليل بلا راع ، وشاهدين : أى
حاضرين ، واللبوس : الدروع ، والبأس : الحرب ، والريح العاصف : الشديدة
الهبوب ، إلى الأرض التي باركنا فيها : هى أرض الشام ، والغوص : النزول إلى قاع
البحار لإخراج شئ منها ، ودون ذلك : أى غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع
الصناعات الغريبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما أنعم الله به على نوح عليه السلام من النعم الجليلة - قفى على
ذلك بذكر الإحسان العظيم الذى آتاه داود وسليمان عليهما السلام وهو قسمان :
(١) نعم مشتركة بينهم وبين النبيين وهى العلم والفهم وإلى ذلك أشار بقوله
وكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .
(٢) نعم خاصة بإحد دون الآخر .

(١) فأنعم على داود بتسخير الجبل والطير للتسبيح معه ، وتعليم صنعة الدروع للوقاية من أذى الحرب .

(ب) وأنعم على سميان بتسخير الريح العاصفة التي تجري بأمره ، وبتسخير الشياطين تغوص في البحار لتخرج له التؤلؤ والمرجان ، وتعمل له أعمالاً أخرى غير ذلك .

الإيضاح

(وداود وسميان إذ يحكما في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناهما سميان وكلا آتينا حكما وعلما) أى واذا كرأياها الرسول الكريم نبأ داود وسميان عبيهما السلام حين حكما في الزرع الذى رعته غنم لقوم آخرين غير صاحب الحرث ليلا فأفسدته ، وكان ربك شاهدا عليهما بما حكم به داود وسليمان بين القوم الذين أفسدت غنمهم الحرث وصاحب الحرث ، لا يخفى عليه شئ منه ولا يغيب عنه علمه ، ففهم الفتيا في ذلك لسليمان دون داود ، وقد كان كل منهما فيصلا في الحكم في الخصومات ، ذا علم بالدين والتشريع .

وقد روى الرواة في تفصيل هذه القصة - أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : إن هذا الرجل أرسل غنمه في حرثي فلم تبق منه شيئا ، فقال داود : اذهب فإن الغنم كلها لك ، ومرة صاحب الغنم بسليمان فأخبره بالذى قضى به داود ، فدخل سليمان على داود فقال يا نبي الله : إن القضاء سوى الذى قضيت ، فقال كيف ؟ قال 'دفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعتها من درّها وأولادها وأشعارها ، والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان ، ثم يترادان فيأخذ صاحب الحرث حرثه وصاحب الغنم غنمه ، فقال داود : القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك .

وجه الرأى لدى كل منهما - إن داود قدر الضرر في الحرث فكان مساويا

نقيمة الغنم فسلم الغنم المبحى عليه ، وإن سليمان قدر منافع الغنم بمنافع الحارث فحكم بها ، وكان حكمهما بالاجتهاد دون الوحي ، إذ لو كان به ما أمكن تغييره .

نعم الله على داود عليه السلام

(١) (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) أى وسخرنا الجبال والطير لداود تقدس الله معه بحيث تمثل له مستبحة ، فيكون ذلك أملك لوجدانه وجميع مشاعره ، فيستغرق في التسبيح ، وكنا فاعلين لأمثاله ، فليس ذلك ببدع منا وإن كنتم أنتم تعجبون منه ، فإن المستغرقين في التسبيح والتقديس يحصل لهم من الأس بالله ما يجعل العالم كله في نظرهم مسبحاً ، وكأن العوالم كلها تنطق لهم به بلسان أفصح من لسان المقال ، ولا يدرك هذا أحد إلا بوجدانه .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

(٢) (وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحصنكم من بأسكم) أى وعلمناه صنعة الدروع وقد كانت صنائع فجعلها حلقاً ، فتمنع عنكم إذا استتموها وتقيم أعداءكم . أذى الحرب من قتل وجرح ونحوها .

(فإل أنتم شاكرون ؟) أى فاشكروا الله على ما يسره لكم من هذه الصنعة التي تتمتع عنكم غوائل الحروب وتقيمكم ضرها وعظيم أذاها .

نعم الله على سليمان عليه السلام

ورث الله سليمان من داود ملكه ونبوته وزاده أمرين أشار إليهما بقوله .

(١) (وسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها) أى وسخرنا أسلمين الريح عاصفة شديدة المهبوب تارة ، ورخاء لينة تارة أخرى .

وفي كل حال منهما تجرى بأمره إلى أى بقعة من الأرض المقدسة ، فيخرج هو وأصحابه حين الغداة إلى حيث شاءوا ثم يرجعون في يومهم إلى منزله بالشام .

وقد رووا أنه كان له بساط من الخشب يضع عليه كل ما يحتاج إليه من أدوات الحرب كالخيل والجمال والخيام والجند . ثم يامر الريح أن تحملها فتدخل تحته ثم تحركه ثم ترفعه وتسير به . وتظله الطير لتقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض ، ثم ينزل ويؤخذ لآلات إلى حيث شاء كما قال : « فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِ رُحَاءِ حَيْثُ أَصَابَ » وقال : « غَدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوْاحُهَا شَهْرٌ » .

(وكنا بكل شيء عالمين) أى ما آتيناها الملك والنبوة وما سخرنا له الريح تجرى بأمره إلا لعلمنا بما فى ذلك من الحكمة والمصلحة ، وأن قومه سيعرفون نعمتنا فيشكرونها عليها .

(٢) (ومن الشياطين من بغوصون له) أى وسخرنا له من الشياطين من بغوصون له فى البحار ويسخرجون منها الأولاد والمرجان ونحو ذلك .

(ويعملون عملاً دون ذلك) أى ويعملون له غير ذلك كبناء الخراب والمنازل والقصور والجفان ونحو ذلك .

(وكنا لهم حافظين) أى وكنا حافظين لأعمالهم فلا يذله أحد منهم بسوء ، فكل فى قبضته وتحت قهره لا يجسر على الدنو منه وهو المتحكم فيهم إن شاء . حبس وإن شاء أطلق كما قال : « وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ » .

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أُنِىْ مَسْنَى الضَّرِّ وَآنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً
مِّنْ عِندِنَا وَذَكَرَى الْعَابِدِينَ (٨٤) .

شرح المفردات

أيوب : هو أيوب بن أموص اصطفاه الله وبسط له الدنيا وكثر أهله وماله . ثم ابتلاه بموت أولاده بسقوط البيت وبذهاب أمواله وبإمرض في بدنه ثمانى عشر سنة ، وسنه إذ ذاك سبعون سنة ، ثم آتاه الله من الأولاد ضعف ما كان وأزال عنه ما به من مرض . وسيأتى تفصيل قصصه في سورة ص ، والضرر : شائع في كل ضرر ، والضر (بالضم) : خاص بما في النفس من مرض وهزال ونحوهما ، والمذكرى : التذكرة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص داود وسليمان وما كان منهما من شكر على النعماء - أردف ذلك بقصص أيوب لما فيه من صبر على البلاء ، فداود وسليمان شكرا على النعم المتراصة ، وأيوب صبر على النقم النازلة ، فأزيلت عنه .

وإن في قصصه الذى ذكر هنا وفي مواضع من الكتاب الكريم لعبارة وتغيره ممن سمع به ، ولفتنا لأنظارهم إلى أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها ويحتشد في القيام بحق الله ويصبر في حالى انسراء والضرراء .

الإيضاح

(وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) أى واذكر نبأ أيوب حين دعا ربه وقد مسه الضر والبلاء فقال : رب انى قد مسنى الضر وأنت أعظم رحمة من كل رحيم .

وقد وصف أيوب نفسه بما يستحق به الرحمة ، ووصف ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بطلوبه إيماء منه بأن ربه به عليم ، فكأنه يقول : أنا أهل لأن أرحم ،

وأنت الكريم الجواد الذى يرحم ، فافض على من جودك ورحمتك ما يسعنى
ويدفع الضر عنى فأنت أرحم الراحمين .

وهذا أسلوب من الطلب دقيق المسلك حكيم المنحى .

روى أن امرأته قالت له يوما نودعوت الله ، فقال : كم كانت مدة الرخاء ؟
فقلت ثمانين سنة ، فقال أستجيبى من الله أن أدعوه ، ما بلغت مدة بلائى مدة رخائى .
(فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر) أى فاستجبنا له دعاءه فكشفنا ضره ،
وقد كان الذى نزل به امتحانا من الله واختبارا له .

(وأنبأه أهله ومثلهم معهم) أى وأعطيناه فى الدنيا مثل أهله عددا مع زيادة
مثل آخر ، فولد له من الأولاد ضعف ما كان .

(رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) أى آتيناه ما ذكر رحمة من لآيوب ، وتذكرا
للعابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب فى الدنيا والآخرة .

وخلاصة ما سلف - إن أيوب ابتلى فى نفسه وولده وماله ، فابتلى بالمرض
وهلاك الأولاد وضياع الأموال امتحانا منه تعالى واختبارا له ، ثم كشف عنه ما به
من ضر فشفى من أمراضه التى أصيب بها ، وأنجب من الأولاد ضعف ما كان ،
وحسن حاله فى ماله فزال ما به من عُدْم وإقتار .

ولم يصرح القرآن الكريم بما صار اليه من سعة فى المال كما صرح بما صار اليه
أمره من كثرة الولد .

وما روى من مقدار ما لحقه من الضر فى نفسه حتى وصل الى حد النفرة منه ،
وأن الناس جميعا تحاموه وطرودوه من مقامه الى ظاهر المدينة فى موضع الكندسة
ولم يكن يتصل به الا امرأته التى تذهب اليه بالزاد والقوت - فكل ذلك من
الإسرائيليات التى يجب الاعتقاد بكذبها ، لأنه ليس لها من سند صحيح يؤيدها ،
ولأن من شروط النبوة ألا يكون فى النبى من الأمراض والأسقام ما ينفر الناس منه ،
ولأنه متى كان كذلك لا يستطيع الاتصال بهم وتبليغ الشرائع والأحكام إليهم ،
وسياتى لهذا مزيد إيضاح فى سورة ص .

وَإِسْمَاعِيلَ ، وَإِدْرِيسَ ، وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥)
وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) .

المنعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه صبر أيوب عليه السلام ودعائه ربه وانقطاعه إليه حتى كشف عنه الضر - ففى عنى ذلك يذكر هؤلاء الأنبياء الذين صبروا على ما أصابهم من آحن والشدة .

الإيضاح

إبراهيم وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين (أى وادكر نبأ هؤلاء الرسل الكرام الذين صبروا على ما ابتلاهم الله به وأخبتوا إليه ، فتناولوا رضاه وأدخلهم جنته .

(١) أما إسماعيل؛ فإنه صبر على الاقياد للذبح . وصبر على المقام بعد لازرع فيه ولا ضرع . وصبر على بناء البيت وسكف المشاق فى ذلك ، وقد أكرمه الله فأخرج من صلبه خاتم النبیین .

(٢) وأما إدريس - أخنوخ - فهو موضع التجربة والاحترام لدى قدماء المصريين وهو يسمى عندهم (أوزيس) ويزعى كثير من الناس أنه أول من خاط الثياب ولبس الخطب ، وكانوا من قبل يلبسون الجلود ، وأول من اتخذ السلاح عذة ، وقد تقدم قصصه بأسهب فى سورة مريم .

(٣) وأما ذو الكفل - والكفل : الحظ والنصيب - فقد اختلف العلماء فى شأنه ، فمن قائل إنه نبي وهم الأكثرون ، وقالوا إنه ابن أيوب عليه السلام بعثه الله نبيا بعد أبيه وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء الى توحيد الله وأقام عمره بالشام . وقال

أبوموسى الأشعرى ومجاهد لم يكن نبيا بل كان عبدا صالحا استخلفه اليسع عنه على أن
يجوم النهار ويقوم الليل ولا يفتضب بفعل .

(وأدخلناهم في رحمته بهم من الصالحين) أى وأدخلنا كل هؤلاء جنات النعيم
جزاء لهم على ما فعلوا من صالح الأعمال .

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي
الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٧٨)
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) .

شرح المفردات

النون : الحوت وجمعه نينان ، وذو النون : أى صاحب الحوت وهو يونس بن
ماتى ، مغاضبا : أى غضبان من قومه لتأديبهم فى العناد والطغيان . تقدر عليه : أى
يسبق عليه فى أمره بحبس ونحوه ، والظلمات : هى ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر
وظلمة الليل .

الايضاح

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا) أى وذكر نبأ يونس عليه السلام حين بعثه الله
إلى أهل نينوى (قرية بالموصل) فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته فأبوا عليه وتمادوا
في كفرهم ففرج من بين ظهور أيهم مغاضبا لهم وأوعدهم بالعذاب بعد ثلاث .

فما تحققوا أنه كائن لا محالة وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء
بأطفالهم وأنعامهم وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم نزعوا إلى الله وجأروا إليه

ورغبت لإبيل وفصلاتها ، وخارت البقر وعجاجيدها ، وثغت الغنم وسخاها ، فرفع الله عنهم العذاب كما قال : « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخُزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ » .

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة ، فلما وصلوا للبحر تكلفت بهم وأشرفوا على العرق ، فافترعوا على رجل منهم يلقونه في البحر يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها فوقعت القرعة عليه أيضا فأبوا ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضا كما يرشد إلى ذلك قوله : « فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » ثم فام يونس وتجرد من ثيابه وألقى بنفسه في البحر ، فأرسل الله إليه حوتا يشق البحر فالتقمه .

ومعنى مغاضبته قومه أنه أغضبهم بفراقه وهجرته من ديارهم ، لأنهم حين نادوا في تكذيبه توعدهم بالعذاب فلم يأتهم لأنهم تابوا ، فكره أن يكون بين ظهرائي قوم جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم واستجيا منهم ولم يعلم توبتهم التي كانت سبب رفع العذاب عنهم .

وخلاصة ذلك — إن غضبه كان أنفة من ظهور خلف وعده لا كراهية لحكم الله ، وقد بحث عنه قومه فلم يجدوه لأنه نزل إلى سفينة في البحر هاربا ، فأخرجه الله من الأنبياء أولى العزم كما قال لنبيه : « فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ » أي لا تلق أمرى كما ألقاه .

(فظن أن لن نقدر عليه) أي فظن أن لن نضيق عليه الأمر بالحبس أو بغيره (فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك) أي فدعا ربه في الظلمات الثلاث التي سبق ذكرها — سبحانك لا إله غيرك ولا يعجزك شيء .

(إني كنت من الظالمين) لنفسى بالمبادرة بالهجرة دون أمر منك .

(فاستجبنا له) دعاءه الذي دعا به وأظهر به التوبة على اللطف وجهه وأحسنه .

روى ابن جرير والبيهقي في جماعة عن سعد بن أبي وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دعوة ذي النون في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له » .

وروى عن أنس مرفوعاً أنه عليه السلام حين دعا بذلك أقبلت دعوته تحف بالعرش فقالت الملائكة هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة ، فقال الله تعالى : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا يارب من هو ؟ قال ذاك عبدى يونس ، قالوا عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة ، يارب أفلا ترحم من كان يصنع فى الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال بلى ، فأمر الحوت فطرحه ، فذلك قوله :

(ونجينا من الغم) الذى ناله حين التقمه الحوت ، فجعلناه يقذفه إلى الساحل بعد ساعات ، قال الشعبي : التقمه ضحى ، ولفظه عشية .

(وكذلك ننجى المؤمنين) من كربهم إذا استغاثوا بنا طالبين رحمتنا ، فلنرازى : شرط كل من ينتجى بى الله أن يبدأ بالنوحيد ثم بعده بالتسبيح والثناء ثم بالاستغفار والاعتراف بالذنب ، وسيمأتى ذكر هذا القصص فى الصافات ون .

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) .

المعنى الجملى

بين سبحانه فى هذا القصص انقطاع زكريا إلى ربه لما مسه الضر بتفرده وأحب أن يكون معه من يؤنس ويقويه على أمر دينه ودنياه ويقوم مقامه بعد موته

فدعا ربه دعاء مخلص عارف بأنه قادر على ذلك ، وأنه قد انتهت الحال به و بزوجه من كبر وغيره إلى اليأس من الولد على مجرى العادة .

الإيضاح

(وزكريا إذ نادى ربه لاتذرني فردا وأنت خير الوارثين) أى واذا ذكر خبر زكريا حين طلب أن يهبه الله ولدا يكون من بعده نبيا ، فقال خُفِيَةٌ عن قومه : رب لاتدعني وحيدا لا ولد لى ولا وارث يقوم بعدى فى النادى ، فإن لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى فإنك خير وارث ، وقد تقدم هذا القصص ، مبسوطا فى سورتي آل عمران ومريم .

(فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) أى فأجبنا سؤله ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه بأن أزلنا عنها الموانع التى كانت تمنعها من الولادة فولدت له بعد أن كانت عقيما .

ثم ذكر السبب فى إجابة مطلبهم فقال :

(إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات) أى لأن زكريا وزوجه ويحيى كانوا يسارعون فى طاعتنا والعمل بما يقرهم إلينا .

(ويدعوننا رغبا ورهبا) أى ويعبدوننا رغبة منهم فيما يرجون من رحمتنا وفضلنا ، وخوفا من عذابنا وعقابنا .

(وكانوا لنا خاشعين) أى وكانوا لنا متواضعين متذللين ، لا يستكبرون عن عبادتنا ودعائنا .

وخلاصة ما سلف — إنهم نالوا من الله ما نالوا لانصافهم بتلك الخلال الحميدة .

وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا
آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١) .

شرح المفردات

الإحصان : المنع مطلقاً ، والفرج في الأصل : الشق بين الشيئين كالفرجة ثم أطلق على السوء ، وكثر حتى صار كالصریح في ذلك ، والروح هو المعنى المعروف ، ونفخ الروح : هو الإحياء ، آية : أى برهان ودليلا على قدرة الله .

الإيضاح

(والتى أحصنت فرجها) أى ومريم التى منعت نفسها من قربان الرجال سواء أكان من حلال أم من حرام كما قالت : « وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا » وجاء في سورة التحريم : « وَمَرْيَمَ بَنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » .
(فنفخنا فيها من روحنا) أى فنفخنا الروح في عيسى في بطنها وجعلناه يجرى في جوفها .

(وجعلناها وابنها آية للعالمين) أى وجعلنا أمرها آية للناس يستدلون به على قدرة الله وحكمته ، ويتدبرون فيما خصا به من الآيات .
أما آيات مريم فمنها :

- (١) ظهور الحمل من غير ذكر .
- (٢) إن الملائكة كانت تأتيها برزقها كما حكى القرآن قول زكريا لها وردها عليه : « يَا مَرْيَمُ أَنْتِ لَكِ هَذَا ؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » .
وأما آيات عيسى فقد سبق تفصيلها في سورتي آل عمران ومريم .

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ
مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ
أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، يَا وَيْلَتَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا
ظَالِمِينَ (٩٧) .

شرح المفردات

الامة : القوم المجتمعون على أمر ثم شاع استعمالها في الدين ، وتقطعوا أمرهم
بينهم : أى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً ، وحرام : أى ممتنع : وقريه : أى
أهلها ، أهلكناها : أى قدرنا هلاكها ، يأجوج ومأجوج تقدم الكلام فيهما
وفى بيان أصدهما ، وحذب : أى مرتفع من الأرض ، ينسلون : أى يسرعون ،
واقترب : أى قرب ، الوعد الحق : هو يوم القيامة ، شاخصة : أى مرتفعة أجفانها
لاتكاد تطرف من شدة الهول ، والويل : الهلاك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص جمع من الأنبياء كنوح وإبراهيم وإدريس وهود وعيسى
وآلهم ما أوتوا من الشرائع والأحكام على وجه الإجمال - ففى على ذلك ببيان أن اب
الدين عند الله واحد ، وأن جميع الأنبياء قد اففقوا عليه ولم يختلفوا فيه فى عصر من
الأعصار وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وأنه هو القاهر فوق عباده للمالك لجميع
السموات والأرض لا يتوده حفظهما وهو العلى العظيم ، وإن اختلفوا فى الرسوم
والأشكال على حسب اختلاف الأزمان والأمكنة ، فعليكم أيها المسلمون أن
تحافظوا على وحدة دينكم ، وألا تجعلوه عضيضين ، وكأنه يقول لهم : عليكم ألا تتركوا

إلى خوارق العادات كما رأيتم في قصص موسى ، ولا تدعوا نظم الدولة بل سوسوها كما كان يفعل داود وسليمان ، ولا تذروا الصبر في جميع الأعمال كما رأيتم في قصص أيوب ومن بعده .

ثم نعى على المسلمين ما سيحدث منهم في مستأنف الزمان حين يتفترقون شيئا يذوق بعضهم بأس بعض ويعملون الدين قطعا فيما بينهم كما تتوزع الجماعة الشيء بقتسمونه فيصير لهذا نصيب ولذاك آخر .

وهذا إخبار بالغيب لما سيحصل في هذه الأمة الإسلامية ، وقد حدث فعلا واقتربت الأمة سياسيا واجتماعيا بواسطة بعض رؤساء الدين ، فأعرض الله عن هؤلاء المختلفين وقطعهم بين الأمم ، كما قطعوا أمرهم بينهم واقسموه .

ثم بين أن الله يثيب عباده على صالح الأعمال إذا كانت القلوب عامرة بالآيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن كل عمل جل أو قل فهو مكتوب محفوظ لديه لا يغيب عنه مثقال ذرة ، وأن جميع الخلق راجعون إليه فيثيب كل إنسان بما عمل من خير أو شر ، وأن الساعة قد اقتربت ميقاتها ، ثم أخبر أن المشركين يدعون إذ ذاك على أنفسهم بالويل والثبور ويقولون يا حسرتنا على ما فرطنا في جنب الله ، وكنا ظالمين لأنفسنا ، ولا ينفع الندم إذ ذاك .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبقى مرتع مبتغيه وخيم

الإيضاح

(إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون) أى إن الدين عند الله هو الاتقياء له وحده لا يقبل غيره ، وعليه اتفق جميع الأنبياء والشرائع ، وما اختلفوا إلا في الرسوم والصور على حسب اختلاف الأزمنة والأمكنة فعليكم أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا من صنم أو وثن شجر أو حجر أو بشر أو ملك .

ثم نعى على المسلمين ما فعلوا من تفريق شأنهم فرقا وشيعا فقال :

(وتقطّعوا أمرهم بينهم) أى وإنهم قد فرقوا أمرهم بينهم فرقا شتى كل فرقة تنمى على من سواها وتشد بمنآخرها ، وقد كان لهم فى عبر الماضين ما يمنعهم أن يقتربوا مثل هذا الجُرم وكبير ذلك الإثم .

قال الحسن البصرى فى هذه الآية - يبين لهم ما يتقون وما يأتون - يريد أن هذا إخبار بالغيب بما سيكون منهم .

والخلاصة - إنه قد غفلوا عما أمر به دينهم من وجوب الاعتصام بوحدة الأمة ونبذ الفرقة ، ففعلوا ضد هذا وذاق بعضهم بأس بعض ، وكان فى هذا وبال للجميع وتمسكن عدوهم من أن يهيبض جناحهم ويبتطش بهم ويستعبدهم فى عُقر دارهم ويسيمهم الخسف والصغار بعد أن كانوا سادة أحرارا ، والله الأمر من قبل ومن بعد . ثم توعدهم على ما فعلوا فقال :

(كلّ إلينا راجعون) أى إنهم سيرجعون إلينا ونجازيهم على تفرقهم واختلافهم شيئا .

وفى هذا إخبار بالغيب بما سيحدث فى هذه الأمة التى ذاق وبال أمرها وعاقبة اختلافها ، وكانت لقمة سائغة للآكلين ، ونهباً مقسماً بين الظالمين ، جزاء ما اجتريحت من التفرق شذراً مذراً « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

وبعد أن أبان أن افتراق الأمة واقع لا محالة أردفه بفتح باب الرجاء فى لم شعنها وانفاقها بعد تفرقها ، عسى أن تقوم من كبوتها وترجع إلى وحدتها وتصير لها الدولة والصلوة كما كانت فى سالف عهدا فقال :

(فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران نسفيه وإنه له كاتبون) أى ومن يعمل صالح الأعمال وقامه ملىء بالإيمان بربه والتصديق لأتبيائه ورسله ، واليقين بيوم الآخريوم تجزى كل نفس بما عملت من خير أو شر ، فإننا لانضيع سعيه ولا نبخسه حقه بل نوفيه على عمله الجزاء الأوفى ، وإننا مثبتون له ذلك فى صحيفة أعماله لانتزك منه شيئا جلّ أو قل ، عظم أو حقّر .

ونحو الآية قوله : « وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا » وقوله : « إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » .
(وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) أى تمتنع أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا .

(حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) أى ويستمر هذا الامتناع إلى قيام الساعة ، ومن أمارات ذلك فتح سد يأجوج ومأجوج وإنيان الناس سراحا من كل مرتفع من الأرض ، والمقصود الرد على المشركين فى إنكارهم للبعث والجزاء .

والخلاصة — إنه لا تزال حياة من مات وهلك ممتعة ولا يمكن رجوعهم إليها حتى تقوم الساعة ويسرع الناس من كل حدب من الأرض .

(واقربب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) أى وقرب محبب يوم القيامة وإذ ذاك تشخص أبصار الذين كفروا وترتفع أجفانهم فلا تكاد تطرف من هول ما هم فيه حين يقومون من قبورهم ويعلمون أن هذا يوم الحساب الذى لم يُعدوا له العدة ، بل كانوا ينكرون محببته وحينئذ يقولون :

(يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين) أى يا هلاكنا احضر فهذا أوانك ، فقد كنا فى الدنيا فى غفلة من هذا الذى دهمنا من البعث والرجوع إلى الله للحساب والجزاء — لا بل الحق أننا لم نكن فى غفلة إذ نهتتنا الآيات والنذر ، وإنما كنا ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب .

وصفوة القول — إن الناس لا يرجعون إلى الحياة حتى تزلزل الأرض زلزالها ويختل نظام هذا العالم فتموج الأمم بعضها فى بعض بتفريق أجزائها ، لافرق بين يأجوج ومأجوج وغيرها — فذكرهما رمز لاختلال الأرض وخرابها ، فكأنه قيل إنهم لا يرجعون إلى الحياة إلا إذا اختل نظام العالم ورجت الأرض رجا وماجت الأمم بعضها فى بعض وخرج الكفار من قبورهم شاخصة أبصارهم من الهول الذى هم

فيه ، وقد ذكرنا في سورة الكهف من يأجوج ومأجوج ، وأين مساكنهم على وجه البسط ؟ فلا حاجة إلى إعادته هنا .

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا
وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هُوَ آلَاءَ آلِهَةٍ مَأْوَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩)
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مَنَا
الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ
أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ
لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلِيمًا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) .

شرح المفردات

الحصب : ما يرمى به في النار لاشتعالها ، والزفير صوت نفس المغموم يخرج
من أقصى الجوف ، والحسنى : أى الكلمة الحسنى التى تتضمن البشارة بنوابهم .
حين الجزاء على أعمالهم ، والحسيس : الصوت الذى يحس من حركتها ، والسجل :
هو الصحيفة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه هول الموقف ودعاء المشركين على أنفسهم بالهلاك في هذا
الحين وشخص ألبصارهم من الخيرة والدهش مما يشاهدون ويرون - أردف هذا بذكر
ما يؤول إليه أمرهم بعد الحساب ، وأنهم يكونون هم ومعبوداتهم من الأصنام والأوثان .

حطبا للنار حين يردونها ، وأنهم من شدة العذاب فيها يكون لهم أنين وزفير حتى لا يسمع بعضهم أصوات بعض لفظاعة ما هم فيه من العذاب .
 أما من كتبت له السعادة والنجاة من النار فأولئك يكونون مبعدين عنها لا يسمعون صوت لهيها ، ولا يخافون من أهوالها وآلامها ، بل يكونون في نعيم دائم وتستقبلهم الملائكة مهئين لهم فائلين : هذا يومكم الذى كنتم توعدون فى الدنيا .
 ثم أعقب ذلك بذكر حال السماء حينئذ وأنها تطوى طيا وكأنها لم تكن كما يطوى الكتاب الطومار الذى يكتب فيه ، ويحول ذلك العالم المشاهد إلى عالم آخر فيخلق الله أرضا جديدة وكواكب جديدة ويعيد الناس للحساب ، وهو القادر على ذلك ، فكما قدر على خلقه أول مرة يعيده فى حال أخرى كما قال : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » .

الإيضاح

(إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) أى إنكم أيها المشركون بالله العابدون من دونه الأوثان والأصنام ، وما تعبدون من دونه من الآلهة - وقود جهنم ، وإنكم واردوها وداخلون فيها .

ونحو الآية قوله : « فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » .

والحكمة فى أن الآلهة تقرن بهم وتدخل معهم فى النار :

(١) إنهم كلما رأوهم ازدادوا غما وحسرة ، لأنهم ما وقعوا فى العذاب إلا بسببهم وقد قالوا : النظر إلى وجه العدو باب من أبواب العذاب .

(٢) إنهم قد كانوا فى الدنيا يظنون أنهم يشفعون لهم فى الآخرة ويدفعون عنهم العذاب ، فإذا استبان لهم أن الأمر على عكس ما كانوا يظنون لم يكن شئ أبغض إليهم منهم .

(٣) إن إلقاءهم فى النار استهزاء بهم وعبادتهم .

ثم بين لهم بالأمثلة خطأ ما يعتقدون فقال :

(لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها) أى لو كان هؤلاء الأصنام آلهة كما تزعمون أيها العابدون - ماوردوا النار ولا دخلوها ، لكنه قد اتضح لكم على أتم وجه أنهم ووردوها ، إذ صاروا حطبها فامتنع كونهم آلهة .

وقصارى ذلك - إن الأصنام إذا كانت لاتنفع نفسها ولا تدفع الضر عنها ، فهي أبعد من أن تدفع الضر عن غيرها ، ومن جراء ذلك فهي جديرة بالتحقير والإهانة لا بالتعظيم والعبادة .

(وكل فيها خالدون) أى وكل من الآلهة ومن عبدوها ما كثون فى النار أبدا لا خلاص لهم منها .

ثم بين أحوالهم فيها فقال :

(١) (لهم فيها زفير) أى لهم فى النار أنين ونفس متقطع من شدة ما ينافهم من العذاب .

(٢) (وهم فيها لا يسمعون) أى وهم فى النار لا يسمع بعضهم زفير بعض اعظم الهول وفظاعة العذاب .

وبعد أن ذكر حال أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله عطف عليه بين أحوال السعداء من المؤمنين بالله ورسوله وقد أسلفوا صالح الأعمال فقال :

(إن الذين سبق لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) أى إن الذين سبق لهم التوفيق للطاعة ، وأخبتوا لله وأخلصوا له العمل - لا يدخلون النار ولا يقر بونها البتة . ثم ذكر أوصافهم حينئذ فقال :

(١) (لا يسمعون حسيسها) أى لا يسمعون صوت النار الذى يحس من حركتها ، ولا يرون اضطرابها من شدة توجهها .

(٢) (وهم فيها اشتت أنفهم خالدون) أى إنهم فى حبور دائم ونعيم لا ينقطع

(٣) (لا يحزنهم الفزع الأكبر) أى لا يخيفهم هول النفخة الأخيرة فى الصور

حين قيامهم من قبورهم للحساب كما قال : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » .

(٤) (وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) أى وتستقبلهم الملائكة
بالبشرى من النجاة من العذاب قائلين لهم : هذا هو اليوم الذي كنتم توعدون
في الدنيا بمجيئه وتبشرون بما لكم فيه من الثواب كفاء إيمانكم بالله وطاعتكم له ،
وتركية أنفسكم بصالح الأعمال باتباعكم أوامر ربكم واجتنابكم نواهيه .

وقصارى ذلك — إنهم خلصوا من كل ما يكرهون ، وفازوا بكل ما يحبون .
(يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) أى هم لا يفزعون حين تطوى
السماء وتزال وتأتى سماء أخرى جديدة وكواكب أخرى كما يطوى الطومار على
ما يكتب فيه لحفظه من الضياع والحو .

والخلاصة — إنه لا يلحقهم الفزع حين تمحى رسوم السماء وتذهب آثارها
وتخلق أرض جديدة وكواكب جديدة .

(كما بدأنا أول خلق نعيده) أى وهكذا نخلقكم خلقا جديدا للحشر كى
تحاسبوا ، فالناس ترجع للحياة على طراز غير طراز الدنيا ، وكذلك العوالم جميعها .
(وعدا علينا إنا كنا فاعلين) أى تلك الإعادة عدة منا كائنة لاحالة ، ولا بد
من تحققتها ، لأننا قادرون عليها .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِى
الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) .

شرح المفردات

الزبور : الكتب التى أنزلت على الأنبياء ، والذكر : النوح المحفوظ ، والبلاغ :
الكفاية ، والعايد : من عمل بما يعلم من أحكام الشريعة وآدابها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحوال كل من الكافرين والمؤمنين فى الآخرة - ذكر أن الدنيا ليست كالأخرة ، فلا يرثها إلا من كان قادرا على إصلاحها والانتفاع بخيراتها والاستفادة مما على ظاهرها وباطنها ، فمن كان أحصفا رأيا وأحكم فكرا ملكها وتسلط عليها وجنى ثمرها واهتدى إلى ما أودع فيها من الخير .

ثم بين أن ما أوحى إلى الرسول من الشرائع وضروب الهداية كاف جد انكفاية لمن يعتبر بسنن الله فى السكون فيستفيد منها ما ينفعه فى دينه ودنياه ، فجميع ما جاء به الوحي من المواعظ وأحكام الشرائع هداية وذكرى لو تدبرها المتدبرون وتأمّلها المنصفون .

الإيضاح

(ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) أى ولقد كتب الله عنده وأثبت فى قديم علمه الأزلى الذى لا ينسى ، ثم أثبت فى الكتب السماوية من بعد ذلك أن الأرض لا يعمرها من عباده إلا من يصلح لعبادتها من أى دين كان وأى مذهب انتحل .

وصلاح الأمة يقوم على أربعة عمد :

(١) أن يكون قادتها عاصاء مفكرين ، وساستها حكماء عادلين ، بعيدين عن الجور والظلم والمحاباة ، يأخذون بيد المظلوم وينصتونه من الظالم ، ويعملون لخير الأمة وسعادتها ، ويواصلون ليلهم بنهارهم فى كل ما يرفع من شأنها ، ويسمو بها على الأمم .

(٢) أن يكون لها جيش منظم يحمى حريتها ، ويدافع عنها إذا جد الجدد ، وادلهم الخطب ، ولن يكون كذلك إلا إذا كان فيه المهندسون والمخترعون والقادة البارعون ، ولديه من السلاح وعدد الحرب ما يكشف عنه العلم من وسائل الدفاع من

طائرات وغواصات وسفن حربية وآلات للهدم والتدمير ، وجند حذقوا فنون الحرب وبلّوا أساليبها المختلفة .

(٣) أن يقوم أبناء الحرف المختلفة من تجار وصناع وزراع بأداء أعمالهم على الوجه المرضى ، وكل طائفة منها تظاهر الطوائف الأخرى وتعاونها لخير الجميع وتقوم بما يجب نحوها من المساعدة فيما يكفل نجاح الأعمال .

(٤) أن تنظم هذه الطوائف أعمالها بحيث تتوزع هذه المهن بين الأفراد على حسب حاجة الأمة إليها حتى لا تمتد يدها إلى غيرها لمعونتها ، ويكون في كل طائفة جماعة مبرزون يفكرون فيما يرقى شأن الطائفة بحيث تنافس أمثالها في الأمم الأخرى أو تفوقها بما أوتيت من حسن التدبير والتصرف .

وهذا حكم أيدته التجارب في سائر العصور لدى جميع الدول ، فما من أمة تهاونت في هذه الأمور ، أو في شيء منها إلا حكم عليها بالفناء والزوال ، وتوارىخ الفرس والروم واللام الإسلامية والندولة التركية تدل على صدق ما نقول .

ونحو الآية قوله تعالى « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ » .

(إن في هذا لبلاغ لقوم عابدين) أى إن فيما ذكر في هذه السورة من أنظمة الدول والتسلط على ألطف الأشياء كالهواء وعلى أصلها كالحديد ، ومن الجمع بين حرب الأعداء والاستغراق في ذكر الله وتسخير العمال في المباني العظيمة ، واستخراج ما في البحار من أصناف اللآلى . وما في باطن الأرض من مختلف المعادن لكفاية لقوم يجمعون بين العلم والعمل ، إذ يعلمون أن العلم شجرة ثمرتها العمل .

فعلى المساهمين فاطمة أن يصدقوا بما أمروا به في هذا الكتاب وأن يعرضوا عن الجاهلين بأمور دينهم ذلة محاسنهم على أعمالهم ، يحاسبهم على قدرهم الجسمية ،

وليعلموا أنه متى ذاعت هذه الآراء في الأمة قامت كلها قومة رجل واحد في تنظيم شئونها وتربية أبنائها تربية تؤهلهم أن يكونوا قادة العالم الإنساني .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أى وما أرسلناك بهذا وأمثاله من الشرائع والأحكام التى بها مناط السعادة فى الدارين - إلا رحمة الناس وهدايتهم فى شئون معاشهم ومعادهم .

بيان هذا أنه عليه السلام أرسل بما فيه المصلحة فى الدارين ، إلا أن الكافر فوت على نفسه الانتفاع بذلك ، وأعرض عما هنالك ، لفساد استعداده وقبح طويته ولم يقبل هذه الرحمة ، ولم يشكر هذه النعمة ، فلم يسعد لافى دين ولا فى دنيا كما قال « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ » وقال فى صفة القرآن « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يعنى رحمة مهداة » .

قُلْ إِنَّمَا يُوجِى إِلَى اللَّهِ أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨)
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ، وَإِنْ أَدْرِى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ
مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)
وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُمْ
بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢) .

شرح المفردات

مسلمون : أى منقادون خاضعون ، تولوا : أى أعرضوا ، آذنتكم : أى أعلمتكم
وكثر استعماله فى الإنذار كما فى قوله : فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، ماتوعدون : من

غلبة المسلمين عليهم ، فتنه أى اختبار ، واحكم أى اقض ، وبالحق : أى العدل ؛ والمراد بذلك تعجيل العذاب لهم ، ماصفون : أى ماقولون وتفترون من الكذب كقولكم « بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » وقولكم إن للرحمن ولدا .

المعنى الجملى

بعد أن أورد سبحانه الحجج والبراهين للإقناع السكاقرين بأن رسالة الرسول حق حتى لم يبق فى القوس منزع وبلغ الغاية التى ليس بعدها غاية ، وبين أن هذا الرسول رحمة للعالمين ، وهداية للناس أجمعين ، وأن من انبمه سلك سبيل الرشاد ومن نأى عنه ضل وسار فى طريق الغواية والعناد - أردف ذلك بما يكون إعدارا وإنذارا فى مجاهدتهم والإقدام على مناوأتهم بعد أن أعيته الحيل وضائق به السبل ولم تغنهم الآيات والنذر ، فبادوا فى غوايتهم ، ولجوا فى عنادهم وأصبح من العسير إقناعهم وهديتهم .

الإيضاح

(قل إنما يوحى إلىّ أنا إلهكم إله واحد) أى قل لمشركى قومك ولما باغته الدعوة من غيرهم : ما أوحى إلىّ ربى إلا أنه لا إله إلا هو ، فلا تصلح العبادة لسواه ، فانقادوا لأمره ، وأذعنوا لطاعته ، وابتعدوا عن عبادة الأوثان والأصنام ، وتبرءوا منها حتى تسلكوا سبيل النجاة ، وتفوزوا بالسعادة .

(فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء) أى فإن أعرضوا عن اتباع ما أوحى إليك فقل لهم : هاأنذا أعلمكم بأبى حرب لكم كما أنكم حرب لى ، فأنابرىء منكم كما أنكم برآء منى ، وأنتم سواء فى هذا الإعلام لا أخص أحدا منكم دون أحد .

ونحو الآية قوله « فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِيْ عَمَلِيْ وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ » .

(وإن أدري أقرب أم بعيد ماتوعدون) أى إن ماتوعدون من غلب المسلمين عليكم واقع لا محالة ، ولكن لاعلم لى بقر به ولا يبعده ، لأن الله لم يطلعنى على ذلك . (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) أى إن الله يعلم ما تجبسون به من الطعن فى الإسلام وتكذيب الآيات ، ويعلم ما تكتمون من الأضغان والمداوات المسلمين ، فيجازيكم على قليل ذلك وجليله .

(وإن أدري أنه فتنه لكم ومتاع إلى حين) أى وما أدري سبب تأخير جزائكم ونعل ذلك زيادة فى افتتانكم وامتحانكم ، لينظر كيف تعملون ، وإنه ليؤخركم إلى حين كي تتمتعوا بلذات الدنيا مع إغراضكم عن الإيمان ، فيكون فى ذلك زيادة عذابكم لأن المعرض عن الإيمان مع توالى الآيات وتتابع البينات والنذريكون عقابه أشد . (قال رب احكم بالحق) أى قال الرسول : رب افصل بينى وبين من كذبنى من مشركى قومي ، وكفر بك وعبد غيرك ، بإحلال عذابك ونقمته به بالعدل الذى يقتضى تعجيل العذاب به ، وتشديده عليه .

وخلاصة ذلك - رب عجل بعذابهم وقد أجاب الله دعوته وأنزل بهم العذاب الأليم عزم بدر .

قال قتادة : كان الأنبياء يقولون « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ » فأمر رسول الله أن يقول ذلك .

(وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) أى والله المستعان على ما تصفون من الشرك والكفر والكذب والأباطيل كقولكم إن الله اتخذ ولدا وقولكم فى الرسول « بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » .

وخلاصة ذلك - إن الله أمره أن يدعوهم بأن يحكم بما يظهر الحق للجميع ، وأمره أن يتوعد الكفار بقوله :

(وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) أى وربنا الكثير الرحمة لعباده . المستعان به فى كل الأمور التى من جهلتها ما تصفون به من أن الشوكة تكون لكم ، ومن قوائمكم « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ » ومن قولكم « اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا » .

وقد كثر استعمال الوصف في الكتاب الكريم بمعنى الكذب كقوله «وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ» وقوله «سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ» وصلى الله على محمد وآله .

خلاصة ما تتضمنه هذه السورة

- (١) الإنذار بقرب الساعة مع غفلتهم عنها .
- (٢) إنكار المشركين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بشر مثهم ، وأن ما جاء به أضغاث أحلام ، وأن محمداً قد افتراه ، ولو كان نبيا حقا لأنى بآية آيات موسى وعيسى .
- (٣) الرد على هذه الشبهة بأن الأنبياء جميعا كانوا بشرا ، وأهل العلم من اليهود والنصارى يعلمون ذلك حق العلم .
- (٤) الإخبار بأن الله أهلك كثيرا من الأمم المكذبة لرسالها وأنشأ بعدهم أقواما آخرين .
- (٥) بيان أن السموات والأرض لم تخلقا عبثا ، وأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادته ولا يعلمون .
- (٦) إقامة الدليل على وحدانية الله تعالى والنهى على من يتخذ آلهة من دونه بلا دليل على صدق ما يقولون مع أن الأنبياء جميعا أوحى إليهم أنه لا إله إلا هو .
- (٧) النهى على من ادعى أن الملائكة بنات الله .
- (٨) وصف النشأة الأولى ببيان أن السموات والأرض كانتا رتقا فانفصلتا ، وأن الجبال جعلت في الأرض أوتادا حتى لا تميد بأهلها ، وأن كلا من الشمس والقمر يسمح في فسكه .
- (٩) استعجال الكافرين للعذاب ، مع أنهم لو علموا كنهه لم يطلبوه .
- (١٠) بيان أن الساعة تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون .

- (١١) قصص بعض الأنبياء كموسى وهرون وإبراهيم ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذى الكفل ويونس وزكريا وقصص مريم .
- (١٢) بيان أن الدين الحق عند الله هو الإسلام وبه جاءت جميع الشرائع ، والاختلاف بينها إنما هو فى الرسوم على حسب اختلاف الأزمنة والأمكنة .
- (١٣) حادث يأجوج ومأجوج من أشراف الساعة واقترب يوم القيامة .
- (١٤) بيان أن الأصنام وعابديها يكونون يوم القيامة حطب جهنم ، وأنهم لو كانوا آلهة حقاً ما دخلوها :
- (١٥) وصف ما يلاقيه الكفار من الأهوال فى النار يوم القيامة .
- (١٦) وصف النعيم الذى يتمتع به أهل الجنة إذ ذاك .
- (١٧) بيان أن الأرض ستبدل غير الأرض ، وأن السماء تطوى طى السجل للكتاب .
- (١٨) إن سنة الله فى السكون أن يرث الأرض من يصلح لعمارتها من أى دين كان وأى مذهب اعتنق .
- (١٩) الوحى إنما جاء بالتوحيد وأن لا إله إلا إله واحد ، وأن الواجب الاستسلام له والانقياد لأمره .
- (٢٠) ما ختمت به السورة من طلب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحكم الله بينه وبين أعدائه المشركين ، وأن الله هو المستعان على ما يصفونه به من أنه مفتر وأنه مجنون وأنه شاعر يترهبون به ريب المنون .

سورة الحج

هى مدينة إلا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ فبين مكة والمدينة ، والأصح أنها مختلطة منها المكي ومنها المدني ، قال العزيزى وهى من أعاجيب السور نزلت ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، مكيا ومدنيا ، ساميا وحر بيا ، محكما ومتشابها .

وآيها ثمان وسبعون .

وهى على حسب موضوعاتها أقسام ثلاثة .

(١) البعث والدليل عليه وما يتبع ذلك .

(٢) الحج والمسجد الحرام

(٣) أمور عامة كالقتال وهلاك الظالمين والاستدلال بنظام الدنيا على وجود

الخالق وضرب المثل بعجز الأصنام وعدم استطاعتها خلق الذباب .

ومناسبتها للسورة قبلها من وجوه :

(١) إن آخر السورة قبلها كان فى أمر القيامة كقوله : يوم نظوى السماء كطى

السجل للكتب ، وقوله : واقرب الوعد الحق - وأول هذه السورة الاستدلال على البعث بالبراهين العقلية .

(٢) إنه قد أقيمت فى السورة السالفة الحجج الطبيعية على الوحدةانية -

وفى هذه جعل العلم الطبيعى من براهين البعث .

(٣) فى السورة السالفة وما قبلها قصص الأنبياء وبراهينهم لقومهم ، وفى هذه

السورة خطاب من الله للأمم الحاضرة ، وهو خطاب يسترعى السمع ويوجب علينا ولو إجمالا أن نعرف صنع الله فى أرضه وسمائه وتديره خلق الأجنة والنبات والحيوان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) .

شرح المفردات

التقوى : التبعاد عن كل ما يكسب الإثم من فعل أو ترك ، والزلزلة : الحركة الشديدة بحيث تزيل الأشياء من أماكنها ، والذهول : الدهش الناشئ عن المهم والغم الكثير ، والمرضعة : الأنثى حال الإرضاع والمرضع ما من شأنها أن ترضع ولو لم ترضع حال وصفها به .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ) أى يَا أَيُّهَا النَّاسُ احذروا عقاب ربكم فأطيعوه ولا تعصوه بفعل ما أمركم به من الواجبات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات ، وهذا خطاب ينتظم فيه المكافون حين النزول ومن سيوجدون بعده إلى يوم القيامة . ثم علل هذا الأمر بقوله :

(إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) أى إن الزلزلة التى تكون حين قيام الساعة قبل قيام الناس من أجسادهم كما قال : « إِذَا زُلْزَلَتِ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » وقال : « وَجِئَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ » الآية ، وقال : « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا » الآية - أمر هائل وخطر عظيم لا يتدرق قدره إلا موجدده ، وإذا كانت الزلزلة

وحدها لا تختمل فما بالك بما يحدث في ذلك اليوم من الحشر والجزاء والحساب على الأعمال لدى من لا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

ثم بين شيئا من أهوال هذا اليوم فقال :

(١) (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت) أى في هذا اليوم يبلغ الأمر من الدهشة والاضطراب والحيرة والذهول أن تذهل المرضعة عن ولدها الذى ترضعه وهو أعز شيء لديها ، فكيف بذهولها عن سواء .

(٢) (وتضع كل ذات حمل حملها) أى وتسقط كل ذات حمل الجنين الذى فى بطنها قبل التمام رعبا وفزعاً .

قال الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام ، وتضع الحامل ما فى بطنها بغير تمام .

(٣) (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) أى وترى الناس حينئذ كأنهم سكارى وما هم بسكارى على التحقيق ، ولكن شدة العذاب هى التى أذهلت عقولهم وأذهبت تمييزهم .

وقد يكون المراد من ذهول الحامل ووضع المرضع ضرب المثل لشدة الأمر وبلوغه أقصى الغايات كما يؤول به أيضا قوله تعالى : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا » .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُفْلَ شَيْطَانٍ رَئِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) .

المعنى الجملى

بعد أن أخبر فيما سلف بأهوال يوم القيامة وشدها ودعا الناس إلى تقوى الله - بين أنه مع هذا التحذير الشديد فإن كثيرا من الناس ينكرون هذا البعث ويجادون فى أمور الغيب بغير علم .

أخرج ابن أبي حاتم أن هذه الآيات نزلت في النضر بن الحارث وكان جدلاً يقول: الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا يقدر الله على إحياء من بلى وصار تراباً .

الإيضاح

(ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) أى ومن الناس من يتعاطى الجدل فيما يجوز على الله من الصفات والأفعال ، وما لا يجوز عليه غير متبع في ذلك حجة ولا برهاناً ، بل يجادل بحقيقة ما يقول ، فيزعم أن الله غير قادر على إحياء من بلى وصار تراباً ، وأن لله ولداً ، وأن القرآن ما هو إلا أسطورة من أساطير الأولين إلى نحو ذلك من الترهات والأباطيل .

وقد ذم المجادلة بغير علم فتوأمأ إلى أن الجدل إذا كان مع العلم والحجة والبرهان فلا يذم ولا يقبح ، وعليه جاء قوله تعالى : « وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

(ويتبع كل شيطان مريد) المريد المتجرد لنفسه العارى عن الخير من قوهم شجرة مرداء إذا كان لا ورق لها ورملة مرداء إذا لم تثبت شيئاً ، أى ومن الناس من يتبع في كل ما يأتى وما يذر من شئونه وأهوائه شياطين من شياطين الإنس والجن الذين يزنبون له طرق الغواية ويسلكون به الطرق التى تزلق به في المهوى ويقودونه إلى الأعمال التى تصل به إلى النار من شرك بالله وعبادة للأوثان والأصنام وشرب للخمر ولعب للميسر إلى نحو أولئك مما يحسنون له عمله ويكونون له فيه القادة الذين لا يرد لهم قول ولا يقبح منهم فعل .

ثم وصف سبحانه ذلك الشيطان بقوله :

(كتب عليه أنه من تولاه فانه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير) أى قدر أن من اتبع ذلك الشيطان وسلك سبيله أضله الله في الدنيا بما يسوس له ويدسى

به نفسه ويزين لها من اتباع الغواية والفجور وسلوك سبيل المعاصي والآثام التي توبقه في جهنم وبئس القرار .

وخلاصة ذلك — إنه يضله في الدنيا ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير بما يجترح من السيئات ، ويرتكب من الآثام .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَا كُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَتُقَرَّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلِّغُوهُنَّ أَشَدَّ كُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّن يُرْدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِّن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) .

شرح المفردات

الريب : الشك ، وأصل النطفة : الماء العذب ويراد بها هنا ماء الرجل ، والعلقة : القطعة الجامدة من الدم ، والمضغة : القطعة من اللحم بقدر ما يعضغ ، والأجل المسمى : هو حين الوضع ، والطفل : يكون للواحد والجمع ، والأشد : القوة ، وأردل العمر : أدنؤه وأردؤه ، هامة : أى ميتة يابسة من قولهم همدت الأرض إذا يبست ودرست ، وهد الثوب : بلى ، واهتزت : أى اهتز نباتها وتحرك ، وربت : ازدادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات ، زوج : أى صنف ، بهيج : أى حسن سار لناظرين ، والحق : هو الثابت الذى يحق ثبوته .

المعنى الجملى .

لما حكى سبحانه عن المشركين الجدل بغير علم فى البعث والحشر وذمهم على ذلك - ففى على هذا بإثباته من وجهين :

(١) الاستدلال بخلق الحيوان وهو ما أشار إليه فى الآية الأخرى : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » وقوله : « فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ؟ قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

(٢) الاستدلال بحال خلق النبات فى قوله وترى الأرض هامدة الخ .

الإيضاح

(يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث) أى إن كنتم فى شك من مجىء البعث فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم وتعلموا أن القادر على خلقكم أول مرة قادر على إعادة خلقكم ثانيا .

وعبر سبحانه بالريب مع أنهم موقنون بعدم حصوله ، إيذانا بأن أقصى ما يمكن صدوره منهم وإن بغوا غاية المكابرة والعناد - هو الارتياح فى شأنه ، أما الجزم بعدم إمكانه فلا يدور بخلد عاقل على حال .

ثم ذكر سبحانه من مراتب الخلق أمورا سبعة :

(١) (فَبِأَنا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تَرابٍ) إذ خلق الإنسان من التراب المتولد من الأغذية ، والأغذية تنتهى إلى النبات وهو يتولد من الأرض والماء .

(٢) (ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ) أى ثم من منى مكون من الدم المتولد من الغذاء المنتهى إلى التراب .

(٣) (ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ) أى ثم من دم جامد غليظ ، ولا ينفخ ما بين الماء والدم من المبينة والمخالفة .

(٤) (ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة) أى ثم من قطعة من اللحم مسواة لا نقص فيها ولا عيب فى ابتداء خلقها ، ومضغة غير مسواة فيها عيب ، وبهذا التفاوت فى الخلق يتفاضل الناس فى صورهم وأشكالهم وطولهم وقصرهم .

(لنبين لكم) أى خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم جميل نظامنا وعظيم حكمتنا التى من جعلتها أمر البعث .

(ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) أى ونبقى ما نشاء من الأجنة إلى الوقت الذى قدر أن تلد المرأة فيه .

(٥) (ثم نخرجكم طفلا) أى ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم إذا بلغت لأجل الذى قدرته لخروجكم منها أطفالا صغارا فى المهد .

(٦) (ثم لتبلغوا أشدكم) أى ثم يعمركم ويسهل تربيتكم حتى تباغوا كمال عقولكم ونهاية قواكم .

(٧) (ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ل斯基لا يعمر من بعد علم شيئا) أى ومنكم من يتوفى على كمال قوته وكمال عقله ، ومنكم من يبقى حتى يبلغ الهرم والتخرف فيصير كما كان فى أول طفولته ضعيف البنية سخيى العقل قليل الفهم .

وخلاصة ذلك — إنه إما أن يميتكم أو يردكم إلى أرذل العمر الذى يساب فيه العلم والقدرة على العمل .

ثم ذكر الاستدلال على إمكان البعث بحال خاق النبات أيضا فقال :

(وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) أى وترى الأرض يابسة دارة الآثار من النبات والزرع ، فإذا نحن أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات وازدادت وانتفخت ، لما يتدأخها من الماء والنبات ، ثم أنبتت أنواعا تسر الناظرين ببديع منظرها ، وجميل شكلها ، واختلاف طعومها وروائحها ، ومقاديرها ومنافعها .

وبعد أن قرر سبحانه هذين البرهانين رتب عليهما النتيجة الحتمية لذلك ،
وذكر أموراً خمسة :

(١) (ذلك بأن الله هو الحق) أى هذا الذى ذكرت لكم من بدئنا خلقكم
فى بطون أمهاتكم ووصفنا أحوالكم قبل الميلاد وبعده طفلاً وكهلاً وشيوخاً فى حال
الهرم ، وتنبيهنا إياكم إلى فعلنا بالأرض الهامدة بما ينزل عليها من الغيث - لتصدقوا
بأن الذى فعل ذلك هو الله الحق الذى لا شك فيه ، وأن ما تعبدون من الأوثان
والأصنام فهو باطل ، لأنها لا تتدبر على فعل شيء من ذلك .

(٢) (وأنه يحيى الموتى) أى ولتعلموا أن الذى قدر على هذه الأشياء البديعة
لا يتعذر عليه أن يحيى الموتى بعد فناءها ودروسها فى التراب .

(٣) (وأنه على كل شيء قدير) أى وأن فاعل ذلك قادر على كل شيء
ولا يمتنع عليه شيء أرادته ، فهو قادر على إيجاد جميع الممكنات ، ومن ذلك إعادة
الأجسام بعد موتها .

(٤) (وأن الساعة آتية لا ريب فيها) أى ولتعلموا أن الساعة التى وعدتكم
أن أبعث فيها الموتى من قبورها آتية لا محالة ولا شك فى حدوثها وليس لأحد أن
يرتاب فيها .

(٥) (وأن الله يبعث من فى القبور) أى ولتوقنوا بأن الله حينئذ يبعث من
فى القبور أحياء إلى موافق الحساب .

وخلاصة ذلك - إنكم إذا تأملتم فى خالق الحيوان والنبات أمكنكم أن تستدلوا
بذلك على وجود الخالق وقدرته على إحياء الموتى وعلى غيرها من الممكنات ، وأن الساعة
آتية لا شك فيها ، وأنه يبعث من فى القبور للحساب والجزاء ، ولولا ذلك ما أوجد
هذا العالم ، لأن أفعاله تعالى مبنية على الحكم الباهرة ، والغايات السامية .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِي عَطْفِهِ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ (١٠) .

شرح المفردات

الهدى : الاستدلال والنظر الصحيح الموصل إلى المعرفة ، والكتاب المنير : الوحي المظهر للحق ، ثنى عطفه : أى لاويا جانبه متكبها مختالا ونحوه تصغير الخلد ولئى الجيد ، والخزى : الهوان والذل ، عذاب الحريق : أى عذاب النار التى تحرق داخيتها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآية قبلها حال الضلال المقلدين الذين يتبعون أهل الكفر والمعاصى - أردف ذلك بذكر حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفرة والمبتدعين .

الإيضاح

(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) أى ومن الناس من يخاصم فى توحيد الله وإقراره بالألوهية بغير علم منه بما يخاصم به ، ولا برهان معه على ما يقول ، ولا وحي من الله أتماه ينير عن حجته ، بل يقول ما يقول من الجهل ظنا منه وتقصرا .

وخلاصة ذلك - إنه يجادل بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح ، بل يجادل اتباعا للرأى والهوى .

(ثانى عطفه) تقول العرب : جاءنى فلان ثانى عطفه إذا جاء متبعثرا متكبها فالمراد - ومن الناس من يجادل وهو لا وعنه معرضا عما يدعى إليه من الحق مستكبها عن قبوله .

ونحو الآية قول لقمان لابنه : « وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ » .

(ليضل عن سبيل الله) أى ليصد المؤمنين بالله عن دينهم الذى هدام الله إليه ويستزلهم عنه .

و بعد أن ذكر فعله وثمرته ذكر ما أعد له عليه فى الدنيا والآخرة فقال :
(له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) أى له فى الدنيا إهانة وذل كغناء استكباره عن آيات الله كما حدث من القتل والأسر بأيدي المؤمنين يوم بدر ، وسيصلى فى الآخرة عذاب النار ويحرق بلهيبها .

ثم بين سبحانه سبب هذا الخزى المعجل والعذاب المؤجل فقال :
(ذلك بما قدمت يداك) أى ويقال له حينئذ : إن هذه النار التى تصطلى بلهيبها اليوم جزاء ما اجتרכת يداك فى الدنيا من الآثام ، واكتسبتها من الذنوب والمعاصى .

(وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى وقد فعلنا ذلك ، لأن الله لا يظلم عباده فيعاقب بعض عبده على جرم ويعفو عن مثله عن آخر غيره .

وقصارى ذلك — إنهم استحقوا هذا العذاب لما اجتروحوه من الآثام والذنوب والله لا يظلم أحدا بغير جرم قد فعله ، ومآل ذلك توبيخهم وتبكيتهم بأنهم هم سبب هذا العذاب .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ
وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نِفْعَةَ ذَلِكَ

هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَيْتِ الْمَوْلَى
وَلِبَيْتِ الْعَشِيرِ (١٣) .

شرح المفردات

على حرف : أى على طرف ، خير : أى سعة فى المال وكثرة فى الولد ، فتنة :
أى بلاء ومحنة فى نفسه أو أهله أو ماله ، على وجهه : أى جهته ويراد بذلك أنه ارتد
ورجع إلى الكفر ، خسر الدنيا والآخرة : أى ضيعهما إذ فاته فيهما ما يسره ، يدعو
الأولى يراد بها يعبد ، ويدعو الثانية : أى يقول ، والمولى : الناصر ، والعشير :
الصاحب والمعاشر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال الضالين المقلدين الذين يجادلون فى توحيد الله بلا بينة ولا دليل
وحال المضين الذين يجادلون بلا سلطان من عقل ولا برهان صحيح من نقل ، ثم سوء
مآلهما فى الدنيا والآخرة وأن لهما فى الدنيا خزيا وفى الآخرة عذابا فى النار تحترق
منه أجسامهما - أعقب بذكر قوم مضطربى الإيمان مذبذبين فى دينهم لا نبات لهم
فى عقيدتهم ولا استقرار لهم فى آرائهم ، إن أصابوا خيرا فرحوا به وركنوا إليه ،
وإن نالهم بلاء وشدة فى أنفسهم أو أهليهم أو أموالهم ارتدوا كفارا ، فحققتهم
الخسار والدمار فى دينهم ودنياهم ، وذلك هو الخسران الذى لا خسران بعده .

وهم فى ذلك الحين يدعون الأصنام والأوثان لتكشف عنهم ضررهم وتدفع عنهم
ما نزل بهم من البلاء وقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدا ، فإن من يدعونه ويعبدونه
أقرب إلى الضرر منه إلى النفع لأنه سيلقيهم فى النار ولبئس القرار .

روى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى أعراب كاهن يقدمون على النبي
صلى الله عليه وسلم به جريرين من باديتهم ، فكان أحدهم إذا صح جسمه وثبتت

فرسه مهرا حسنا أو ولدت امرأته غلاما وكثر ماله وماشيته - رضى به واطمأن إليه ، وإن أصابه وجع أو ولدت امرأته جارية أو أجهضت رماكه (خيله) أو ذهب ماله أو تأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان وقال له : ما جاءتك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه .

الإيضاح

(ومن الناس من يعبد الله على حرف) أى على طرف من الدين لاقى وسطه وقلبه ، فهو فى قلق واضطراب فى دينه لاقى سكون وطمأنينة ، فمثل مثل الذى يكون على طرف من العسكر إن أحسّ بغنيمة قرّ وسكن ، وإن كانت هزيمة فرّ وهام على وجهه ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) أى فإن أصابه رخاء وسعة فى العيش سكن واستبشر بهذا الخير والدين فعبد الله ، وإن أصابه شر وبلاء فى جسمه أو ضيق فى معيشته ارتد ورجع إلى الكفر .

والثبات فى الدين إنما يكون إذا كان الغرض منه إصابة الحق وطاعة الرب والخوف من عقابه ، أما إذا كان المقصد منه الخير المعجل فإنه يظهر فى السراء ويختفى لدى الضراء ، وهذا هو النفاق بعينه كما يرشد إلى ذلك قوله فى المنافقين : « مُدْبِرِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ » وقوله : « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ فَأُولَئِكَ نَكُنْ مَعَكُمْ » .

وخلاصة ذلك - إن من الناس من ليس له ثبات فى أمر دينه ، بل هو مُرْجَجٌ مضطرب مذبذب يعبد الله على وجه التجربة انتظارا للنعمة ، فإن أصابه خير بقى مؤمنا ، وإن أصابه شر من سقم وضياع مال وفقد ولد ترك دينه وارتد كافرا . ثم بين سوء عاقبة عمله فقال :

(خسر الدنيا والآخرة) أى ضيع نفعهما وزالت عنه فائدتهما ، فإنه خسر في الدنيا العز والكرامة وإصابة الغنيمة ، وخسر في الآخرة الثواب الدائم، بل حل به العقاب اللازب .

(ذلك هو الخسران المبين) أى وذلك هو الخسران الذى لا خسران مثله لمن تدبر فيه وتفكر .

ثم أكد عظم ذلك الخسران بقوله :

(يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه) أى يدعو من دون الله آلهة لا تضره . إن لم يعبدها في الدنيا ، ولا منفعة له في الآخرة إن عبدها .

(ذلك هو الضلال البعيد) أى ذلك الارتداد وعبادة تلك الآلهة دون الله هو السير على غير استقامة والذهاب على غير هدى ، فما مثله إلا مثل من أبعد في القية ضالا وبعدت مسافة ضلاله فلم يهتد إلى الصراط السوى ولم ينل ما يبتغى وبلغت به الحيرة كل مبلغ .

ثم بين مآل دعائه وعبادته غير الله فقال :

(يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) أى يعبد الكافر من ضره أقرب تحققا من نفعه يوم القيامة فيقول برفع صوت وصراخ حين يرى تضرره بذلك المعبود ودخوله النار بسببه ولا يرى أثرا مما كان يتوقع من نفعه : لبئس هذا المعبود ناصرا ، ولبئس مخالطا ومعاشرا .

وخلاصة ذلك — أى عشير هذا وأى مصاحب كان لا ينفع مولاه ولا ينصر من يعاشره ؟ والله لبئس العشير ولبئس الصاحب هو .

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) .

المعنى الجملى

لما ذكر في الآية السالفة حال عباده المنافقين وحال معبوديهم - عطف على ذلك
بذكر حال المؤمنين الذين آمنوا بقلوبهم ، وصدقوا بإيمانهم بأفعالهم ، وعملوا الصالحات
وتركوا المنكرات .

الإيضاح

(إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار)
أى إن الله سبحانه يتفضل على المؤمنين الذين عملوا صالح الأعمال ويكافئهم لقاء
إحسانهم بدخول الجنات التى تجري من تحت أشجارها الأنهار جزاء وفاقا على
ما قاموا به من جليل الأعمال ، وما زكوا به أنفسهم من جميل الخصال .

ولما بين سبحانه حال الفريقين ذكر أنه قادر على أن يفعل بهما ما يشاء فقال :
(إن الله يفعل ما يريد) من إكرام من يطيعه وإهانة من يعصيه ، لا راد
لحكمه ، ولا مانع لقضائه ، فهو يعطى المتقين ضربا من الفضل والإحسان زيادة
على أجورهم كما قال : « فَيَرْفِئُهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَرْيَدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » ويدخل الكافرين
نارا وقودها الناس والحجارة لما دسروا به أنفسهم من أنواع الرجس والفسوق .

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ
إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَلِكَ
أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦) .

شرح المفردات

بسبب : أى بحبل . إلى السماء : أى إلى سقف بيته ، ليقطع : أى ليخندق .
فلم ينظر : أى فليقدر في نفسه النظر ، كيد : أى عمله ، ما يغيط : أى غيظه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال المجادل بالباطل وخذلانه فى الدنيا لأنه لا يدلى بحجة من العقل ولا ببرهان من الوحى ، ثم بين ما يتولى إليه أمره من النكال فى الدنيا والخرى فى الآخرة ، ثم ذكر مشاييعه وعمه خسارهم فى الدارين ، وأردف ذلك بذكر حال المؤمنين وما يقونه من السعادة والنعيم فى الدار الآخرة - قفى على ذلك بذكر المجادل عنهم وعن دين الله بالتى هى أحسن ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالغ فى إثبات نصره بما لا مزيد عليه ، ثم ذكر شأن كتابه وأنه آيات واضحات ترشد إلى سواء السبيل .

الإيضاح

(من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فليظن هل يذهبن كيده ما يعيظ) أى من كان يحسب أن الله لن ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى سماء بيته ثم ليختنق به ثم ليصور فى نفسه النظر ، هل يذهبن ذلك الكيد الذى كاده والفعل الذى فعله ما يعيظه من النصرة - كلاً .

وخلاصة المعنى — من كان يظن أن الله ليس بناصر محمدا ولا كتابه ولا دينه فليذهب وليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه ، فإن الله ناصر له لا محالة كما قال : « إِنَّا لَنَنْظُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » وسيعلى فى الدنيا كلمته ويظهر دينه ، ويرفع فى الآخرة درجته ويدخل من صدقه جنات تجرى من تحتها الأنهار وينتقم ممن كذبه ويذيقه عذاب الحريق ، فمن كان من أعاديه يعيظه ذلك فليبالغ فى كيده إلى أقصى مجهوده فقصارى أمره خيبة مسعاه ودوام غيظه دون أن يصل إلى غاية أو يبلغ أمنية .

وتلخيص هذا — أيها الكاره لحمد الذى أرسل لإيقاظك ، إن نعم الله على

عباده كثيرة ولا سيما بعثة الأنبياء ، فإذا كرهت ما أنعم الله به عليك ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم فكأنك تختنق ، لأنك تكره النعم لنفسك فتستبيح خنقها من حيث لا تشعر .

(وكذلك أنزلناه آيات بينات) أى وكما بينت لكم حججى على من جحد قدرتى على إحياء من مات من الخلق بعد فنائه وأوضحها غاية الإيضاح - أنزلنا القرآن كله آيات وأضحات الدلالة على معانيها .

وخلاصة ذلك - إن القرآن كله كامل البيان فى جميع أبوابه وفصوله لافى أمر البعث وحده .

(وأن الله يهدى من يريد) أى وكذلك أنزله ليوفق به لسبيل الحق من أراد هدايته وإرشاده إلى سبيل السلام .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)

شرح المفردات

الذين هادوا : هم اليهود ، والصابئين : قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرءون الزبور ، وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى أن الصائبة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام ، ويقال لمقابلهم الخفاء ، وعدة مذهبهم تعظيم النجوم ثوابتها وسياراتها ، والمجوس - على ما قاله قتادة - قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران ، والذين أشركوا : هم عبادة الأوثان ، فالأديان ستة : خمسة للشيطان ، وواحد للرحمن ، يفصل : أى يقتضى بإظهار الحق من المبتطل ، شهيد : أى عالم بكل الأشياء ومراقب لها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر في الآية السالفة أنه سبحانه يهدي من يريد - أتبعه ببيان من يهديه ومن لا يهديه .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد) أى إن الله يقضى بين هذه الفرق ويظهر الحق من المبطل ويجازى كلًّا بما يفعل ويضعه في الموضع اللائق به ، إذ ليس شيء من أحوالهم بغائب عنه ، بل هو عليم بأقوالهم مراقب لأفعالهم . وخلاصة ذلك — إنه تعالى يحكم بالعدل فيدخل من آمن به الجنة ، ويلقى من كفر به في جهنم ، وبئس القرار ، وهو الشهيد على أعمالهم ، الحفيظ لأفعالهم ، العليم بسرائرهم ، وما تكنه ضمائرهم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ، وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)

شرح المفردات

ألم تر : أى ألم تعلم ، والسجود : لغة التطامن والتذلل ، ثم أطلق على التذلل لله وعبادته ، وهو ضربان : سجد بالاختيار ، وهو خاص بالإنسان وبه يستحق الثواب . وسجود بالتسخير والانقياد لإرادته سبحانه وهو دال على الذلة والافتقار إلى عظمته جلّت قدرته ، من في السموات : هم الملائكة ، ومن في الأرض : هم الإنس والجن ، وحق : أى ثبت وتقرر .

المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف أنه تعالى يقضى بين أرباب الفرق السالفة يوم القيامة وهو شهيد على أقوالهم وأفعالهم - أردف هذا ببيان أنه ما كان ينبغي لهم أن يختلفوا، ألا يرون أن جميع العوالم العلوية والسفلية كبيرها وصغيرها من شمسها وقمرها ونجومها وجبالها وحيواناتها ونباتها - خاضعة لجبروته مسخرة لقدرته، وقد كان في هذا متنع لهم لو أرادوا - ولكن من يهينه الله ويكتب عليه الشقاء فلا يستطيع أحد أن يسعده ، فالله وحده هو التقدير على الإشقاء والإسعاد .

الإيضاح

(ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس) أى ألم تعلم أيها مخاطب بهذا أن هذه الخلائق مسخرة لقدرة بارئها ، وجبروت منشئها ، متقادة لإرادته طوعا أو كرها فهى مفتقرة فى وجودها وبقائها إليه الذى أنشأها ورببها وأكمل وجودها على النحو الذى أرادته والحكمة التى قدرها لها فى البقاء .

وأفرد الشمس وما بعدها بالذكر لأنها قد عبدت من دون الله ، فعبدت الشمس حمير ، والقمر كنانة ، والشعرى نخم ، والثريّا طىء ، والمصريون عبدوا العجل (أبيس) وعبدت العزى - شجرة - غطفان .

(وكثير حق عليه العذاب) أى وكثير منهم لا يسجدون فاستحقوا بذلك العذاب . (ومن يهين الله فما له من مكرم) أى ومن يهينه الله من خلقه فيكتب له الشقاء لسوء استعداده فما له من مكرم يسعده ، لأن الأمور كلها بيد الله يوفق من يشاء لطاعته ، ويخذل من يشاء لتدسيته نفسه ، واجترأه للسيئات وارتكابه الآثام والمعاصى .

(إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُشَاءُ) أى إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ فِي خَلْقِهِ مَا يُشَاءُ مِنْ إِهَانَةٍ مِنْ أَرَادَ إِهَانَتَهُ ، وَإِكْرَامٍ مِنْ أَرَادَ إِكْرَامَهُ فَهُوَ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ .

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُمْ فِيهَا يَمْشُونَ وَلَهُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ يُصْعَقُونَ بِهِ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ جَبَّارَاتٍ وَيُمْسِكْنَ الْعُرْسَ وَيُمْسِكْنَ فِيهَا الْوُجُوهَ وَهُمْ فِيهَا كَافَّةٌ وَلَهُمْ فِيهَا مَائِدَاتُ مَذْخَرَاتٍ وَهُمْ فِيهَا سَوَاحِلُ مَدَائِدٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَفِيهَا زَايِذُ بَاقَرَاتٍ تَلْبَسُ الْحُمْرَ وَالْأَسْوَادَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٢٤)

شرح المفردات

خصمان : واحدتهما خصم ، وهو من له رأى غير رأيك في موضوع ما وكل منهما يحتاج صاحبه فيه ، قطعت لهم : أى قدرت ، والحميم : الماء الذى باقت حرارته أقصى الغاية ، يصهر به : أى يذاب ، ومقامع : واحدتها مقمعة ، وهى السوط ، والغم : الحزن الشديد ، والطيب من القول : ما يقع في محاوراة أهل الجنة بعضهم بعضا ، وصراط الحميد : أى الطريق المحمود في آداب المعاشرة والاجتماع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أرباب الفرق الست فيما سلف ، وذكر أن الله يفصل بينهم يوم القيامة وهو العليم بأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم - قفى على ذلك بذكر طرفي الخصومة

وتعيين موضع الخصومة وبيان مآل كل من الفريقين من الإهانة والكرامة ،
والعذاب والنعيم .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : تخصم المؤمنون واليهود
قالت اليهود : نحن أولى بالله تعالى وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون :
نحن أحق بالله تعالى . آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله تعالى
من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا فنزلات الآية .
ويرى جماعة من الصحابة والتابعين وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول أن
المراد بالخصميين هم الذين برزوا يوم بدر ، فمن المؤمنين حمزة وعلى وعبيدة ، ومن
الكافرين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، وكان أبو ذريقسم إن هذه
الآيات نزلت في هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه في الصحيحين وغيرها ، وروى
البخارى وغيره عن علي أنه قال : فينا نزلت هذه الآية وأنا أول من يحشوا في الخصومة
على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة .

الإيضاح

(هذان خصمان اختصموا في ربهم) أى إن أهل الأديان الستة التى سبق
ذكرها فريقان : فريق المؤمنين . وفريق الكافرين أرباب الديانات الخمس المتقدمة
جادلوا في دين الله ، فكل فريق يعتقد أن ما هو عليه هو الحق وأن ما عليه خصمه
هو الباطل ، وبني على ذلك كل أقواله وأفعاله ، وهذا كاف في تحقيق الخصومة
وإن لم يحصل بينهما تحاور بالفعل .

ثم ذكر مآل كل فريق وما يلقاه من الجزاء بعد أن يفصل الله بينهما ، وذكر من
جزاء فريق الكافرين أمورا ثلاثة :

(١) (فالذين كفروا قطعتم لهم ثياب من نار) أى فالكافرون أعدت لهم
نيران تحيط بهم كأنها ثياب قدرت على قدر أجسامهم .

ولا يخفى ما فى هذا الأسلوب من التهم بهم واحتقار شأنهم .
والتعبير بثياب للإشارة إلى تراكم طبقات النار المحيطة بهم وكون بعضها فوق بعض .

وشبهه بالآية قوله : « لَهْم مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » .
(٢) (يصب من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما فى بطونهم والجلود) أى يصب من فوق رؤوسهم الماء الحار الذى يذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يحرق جلودهم ،
فله أثر فى الباطن والظاهر .

أخرج عبد بن حميد والترمذى فى جماعة عن أبى هريرة أنه تلا هذه الآية فقال :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ
من الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما فى جوفه حتى يبلغ قدميه وهو الصهر
ثم يعاد كما كان » .

(٣) (ولهم مقامع من حديد) أى ولتعذيبهم سياط من حديد تضرب بها
رؤوسهم ووجوههم يجمعون بها ويردون ردا عنيفا إذا أرادوا الهرب من النار ، وإلى
هذا أشار بقوله :

(كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) أى
إنهم كلما حاولوا الهرب من جهنم والخروج منها حين يلحقهم عظيم عذابها أعيدوا فيها
وضربوا بسياط من حديد وقيل لهم : ذوقوا عذاب هذه النار التى تحرق
الأمعاء والأحشاء .

وبعد أن بين سوء حال الكافرين أردف ذلك ببيان ما يناله المؤمنون من
الكرامة فى المسكن والحلية والملبس وحسن القول والعمل فقال :

(١) (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها
الأنهار) أى إن الله يدخل من آمن بالله ورسله وعمل صالح الأعمال التى ترضى

نفوسهم ، وتقر بهم إلى ربهم - جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الوارفة
الظلال : الأنهار الواسعة يتمتعون بها كما شاءوا .

(٢) (يخلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا) أى يلبسون فى أيديهم حبة
من ذهب ، وفى رؤوسهم تيجانا من لؤلؤ .

(٣) (ولباسهم فيها حرير) أى ويلبسون الحرير الذى حرم عليهم لبسه
فى الدنيا ، وكانت هذه الخلية والملابس فيها عنوان العزة والكرامة فأوتوها فى الآخرة
إجلالا وتعظيما لهم .

(٤) (وهدوا إلى الطيب من القول) أى وأرشدوا إلى القول الطيب وهو
قولهم حين دخول الجنة : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ
مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » .

(٥) (وهدوا إلى صراط الحميد) أى وأرشدوا إلى الطريق الحميد الذى يجعل
أقوالهم وأفعالهم مرضية عند ربهم محمودة لدى معاشريهم وإخوانهم مما يجعل
فى المعاشرة والاجتماع .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي
جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ . وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ
مِنْ عَذَابِ الْإِيمِ (٢٥) .

شرح المفردات

المراد بالمسجد الحرام : مكة . وعبر به عنها لأنه المقصود المهم منها . العاكف :
المقيم ، والبادى : الطارىء القادم عليها ، والإحاد : العدول عن الاستقامة ، بظلم :
أى بغير حق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مآل كل فريق من الكفار والمؤمنين - أردف ذلك بعظم حرمة البيت وأكر على الكفار صدم المؤمنين عن شهوده وقضاء مناسكهم فيه ودعواهم أنهم أولياؤه .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الآية نزلت فى أبى سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عام الحديبية عن المسجد الحرام وقد كره عليه السلام أن يقاتلهم وكان محرما بعمره ثم صالحوه على أن يعود فى العام المقبل .

الإيضاح

(إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) أى إن الذين جحدوا توحيد الله وكذبوا رسوله وأنكروا ما جاءهم به من عند ربهم ، ويمنعون الناس أن يدخلوا فى دين الله ، ويصدون عن الدخول فى المسجد الحرام الذى جعله للذين آمنوا به كافة ، سواء منهم المقيم فيه والطارى عليه النازع إليه من غربته - نذيقهم عذابا مؤلما موجعا لهم ، ويدل على هذا قوله :

(ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) أى ومن يرد أن يميل إلى الظلم فى المسجد الحرام فيعصى الله ويخالف أوامره - نذقه يوم القيامة العذاب الموجه له .
وخلاصة ذلك - إنه سبحانه توعد الكفار الذين يصدون عن الدين ويمنعون الناس عن اعتناقه ويحولون بين الناس ودخول مكة - بالعذاب المؤلم لهم يوم القيامة كما توعدهم بذلك من يرتكب الذنوب والآثام فى المسجد الحرام .

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي
لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ
رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ
لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ
فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَتِمَّةَهُمْ وَلِيُوَفُّوا
نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)

شرح المفردات

يقال بواء منزلا : أى أنزله فيه ؛ وأصل البيت مأوى الإنسان بالليل ثم أطاق
على كل مأوى متخذ من حجر أو مدر أو صوف أو وبر والمراد به هنا الكعبة
وقد بنيت عدة مرات فى أوقات مختلفة ، وأذن : أى ناد ، بالحج : أى بالدعوة إليه ،
رجالا : أى مشاة ، والضامر : البعير الهزيل الذى أتعبته كثرة الأسفار ، ويطلق على
الذكر والأنثى ، والفج : الطريق ، والعميق : البعيد ، ويذكروا اسم الله : أى
يحمده ويشكروه ، والأيام المعلومات : هى أيام النحر وهى ثلاثة أيام يوم العيد ويومان
بعده ، والمراد بهيمة الأنعام : الإبل والبقر والضأن ، والبائس : الذى أصابه البؤس
والشدة ، وليقضوا : أى ليزيلوا ، والتفت : الوسخ ، ويراد به هنا قص الشعور وتقليم
الأظفار ، والنذور : ما ينذر من أعمال البر فى الحج ، والعتيق : القديم لأنه أول بيت
وضع للناس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن كثيرا من مشركى قريش صدوا عن دين الله وعن دخول
المسجد الحرام - أردف ذلك بتأنيبهم وتوبيخهم على ما يفعلون ، فبين أنه ما كان

ينبغي لهم ذلك ، فإن أباهم إبراهيم الذى يفخرون به وينتسبون إليه هو الذى ابتناه وجعله مباءة للناس وأمر بتطهيره من الشرك للطائفين والمصلين ، وأن ينادى فى الناس ليأتوه من كل فج عميق ، لما لهم فى ذلك من منافع دينية ودنيوية ، ويذكروا اسم الله فى أيام النحر على ما آتاهم من بهيمة الأنعام ، فذكروه على ذلك وكلوا منها وأطعموا الفقراء والبائسين ، فإذا قضيت مناسككم فازيلوا ما عليكم من الوسخ والقذر ، فقلعوا أظفاركم وأزيلوا شعوركهم ثم وفوا ما عليكم من نذور كنتم قد نذرتموها من أعمال البر والخير ، ثم طوفوا طواف الزيارة بالبيت العتيق ، وبذلك تكونون قد أتممت مناسك الحج .

الإيضاح

(وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) أى واذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين يصدون عن سبيل الله وعن دخول المسجد الحرام - الوقت الذى جعلنا فيه هذا البيت مباءة للناس يرجعون إليه للعبادة ، والمراد بذكر الوقت ذكر ما وقع فيه من حوادث جسام ليتذكروا فيقلعوا عن غيهم ويرعوا إلى رشدهم ويستبين لهم عظيم ما ارتكبوا من خطأ ، وكبير ما اجترحوا من جُرم ، بصدم الناس عن بيت بناه أبوهم وجعله الله قبلة للناس فى الصلاة ومكانا للطواف حين أداء شعيرة الحج .

(أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود) أى وقلنا له : لا تشرك بى شيئا من خلقى فى العبادة ، وطهر بيتى من الأوثان والأقدار لمن يطوف به ويصلى عنده .

(وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) أى وقلنا له : ناد الناس داعيا لهم إلى الحج وزيارة هذا البيت الذى أمرت بينائه - يأتوك مشاة على أرجلهم وركبانا على ضوامر من الإبل من كل طريق بعيد .
ثم بين السبب فى هذه الزيارة فقال :

(ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) أى يأتونك ايحضروا منافع لهم فى الدنيا من تجارة رائجة و سلعة نافعة ، و منافع فى الآخرة بما يعملون من عمل يرضى ربهم ، و بما يحمّدونه على النعم التى ترى عليهم و ما رزقهم من الهدايا و البهائم التى أهدوها أيام النحر الثلاثة يوم العيد و يومان بعده .
(فكأوا منها و أطعموا البائس الفقير) أى فأذكروا اسم الله على نضايكم و كلوا من لحومها و أطعموا ذوى الحاجة الفقراء الذين مسهم الضر و البؤس .
(ثم ليقتضوا نفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) أى ثم ليذبلوا ما علق بهم من الأوساخ فيحرقوا الشعر و يقاموا الأظفار و يأخذوا من الشوارب و العارضين ، و ليوفوا ما نذروه من أعمال البر ، و ليطوفوا طواف الوداع بالبيت العتيق إذ هو أقدم بيت للعبادة فى حياة البشر .

ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ خُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحْلَلَتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُشْنَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُمْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) .

شرح المفردات

ذلك : أى الأمر هكذا ، و يقع للفصل بين كلامين أو بين وجهى كلام واحد كقوله تعالى : « هَذَا وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ شَرًّا مَّآبٍ » ، و الحرمت : التكاليف الدينية من مناسك الحج وغيرها ، و تعظيمها العلم بوجوبها . و العمل على موجب ذلك ،

والزور : الكذب ، وحنفاء واحد هم حنيف : وهو المائل عن كل دين زائغ إلى الدين الحق ، وخر : سقط ، والخطف : الاختلاس بسرعة ، تهوى : أى تسقط ، سحيق : أى بعيد ، والشعائر واحدها شعيرة : وهى العلامة ؛ والمراد بها البدن الهدايا ، وتعظيمها : أن تختار حسنا سمنا غالية الأثمان ، والأجل المسمى : هو أن تنحصر وتنحصر ، ومحلهما : مكان نحرها ، والمراد بالبيت العتيق : ما يليه ويقرب منه وهو الحرم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أمر إبراهيم ببناء البيت وتطهيره من عبادة الأوثان والأصنام ، وأن ينادى الناس ليحجوا هذا البيت الحرام مشاة وركبانا من كل فج عميق ، لما لهم في ذلك من منافع دنيوية ودينية ، وأن ينحروا البدن الهدايا ذاكرين اسم الله عليها في أيام معلومات ، وأن يأكلوا منها ويطعموا البائس الفقير ، وأن يقصوا شعورهم ويقاموا أضفارهم ثم ليطوفوا بهذا البيت العتيق - قفى على ذلك بيان أن اجتناب المحرمات حال الإحرام خير عند الله مثوبة وأعظم أجرا ، وأن ذبح الأنعام وأكلها حلال إلا ما حرم عليكم ، وأنه يجب اجتناب عبادة الأوثان وترك شهادة الزور ، وأن من يشرك بالله فقد هلك ، وأن تعظيم شعائر الله علامة على أن القلوب مليئة بالتقوى والخوف من الله ، وأن في هذه الهدايا منافع من الدرر والصوف والنسل إلى أجل مسمى وهو أن تنحصر ثم تؤكل ويتصدق بلحومها .

الإيضاح

(ذلك ، ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه) أى هذا الذى أمر به من قضاء التفث والوفاء بالنذور والطواف بالبيت هو الغرض الواجب عليكم أيها الناس في حجكم - ومن يجتنب ما أمر باجتنابه في حال إحرامه تعظيما منه لحدود الله أن يواقعها ، وخره أن يستحلها - فهو خير له عند ربه في الآخرة ، بما ياله من رضا وجزيل ثوابه .

وعن ابن زيد : الحرمات المشعر الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام .

(وأحلّت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم) أى وأحلّ لكم أيها الناس أن تأكلوا الأنعام إذا ذكيتموها ، فلم يحرم عليكم بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حاميا إلا ما يتلى عليكم في كتاب الله وهو الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع وما ذبح على النصب ، فإن كل ذلك رجس .

(فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به) أى فابتعدوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان فإن ذلك رجس ، واتقوا قول الكذب والفرية على الله كقولكم في الآلهة : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » وقولكم : الملائكة بنات الله ، ونحو هذا من القول فإن ذلك كذب وزور وشرك بالله ، وقوله حنفاء لله غير مشركين به : أى تمسكوا بهذه الأمور على وجه العبادة لله وحده دون إشراك أحد سواه معه .

(ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) أى إن من أشرك مع الله سواء فقد أهلك نفسه هلاكا ليس وراءه هلاك ، وكانت حاله أشبه بحال من سقط من السماء فتخطفه الطير ففرقت أجزائه في حواصلها إربا إربا ، أو عصفت به الريح فهوت به في المهاوى البعيدة التي لا رجعة له منها .

(ذلك) أى امثلوا ذلك واحفظوه ولا تتهاونوا في الحرص عليه والسير على نهجه .

(ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) أى ومن يعظم البدن التي يهديها للحرم بأن يختارها عظمة الأجسام سمينة غير هزيلة غالية الثمن ويترك المكاس حين شرائها - فقد اتقى الله حقا ، فإن تعظيمها باب من أبواب التقوى بل هو من أعظم أبوابها .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدى مائة بدنة فيها جل لأبى جهل في أذنه
بُرّة - حلق - من ذهب ، وأن عمر أهدى نجبية - ناقة - طلبت منه بمئنة دينار،
وقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعهما ويشترى بثمنها بهما فنهاه عن ذلك
وقال بل أهدهما ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يسوق البدن مُجَلَّةً بالقباطى - ثياب
مصرية غالية الثمن - فيتصدق بالحوما وبجلالها .

(لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) أى لكم فى تلك الهدايا منافع كركوبها
حين الحاجة وشرب ألبانها حين الضرورة إلى أن تذجر ويؤكل منها ويتصدق
بلحومها .

(ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) أى ثم مكان حل نحرها عند البيت العتيق أى
عند الحرم جميعه ، إذ الحرم كله فى حكم البيت الحرام .

أخرج البخارى فى تاريخه والترمذى وحسنه والحاكم وصححه وابن جرير
والطبرى وغيرهم عن ابن الزبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما سمي
الله البيت العتيق ، لأنه أعتقه من الجبارة فلم يظهر عليه جبار قط » وإلى هذا ذهب
قتادة وقد قصده تبع ليهده فأصابه الفالج فأشير عليه أن يكف عنه ، وقيل له إن
ربا يمنعه ، فتركه وكساه ، وهو أول من كساه ، وقصده أبرهة فأصابه ما أصابه .

وَإِكُلْ أُمَّةً جَعَلْنَا مَنَسْكَ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ
بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهَا كُفِّرَتْ بِلِلَّهِ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)
الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي
الصَّلَاةِ وَنِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)

شرح المفردات

المنسك (بكسر السين وفتحها) والمنسك فى الأصل : العبادة مطلقا ، وشاع
استعماله فى أعمال الحج والمراد به هنا الذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه

تعالى ، أسألهوا : أى انقادوا له ، الخبيتين : أى المتواضعين الخاشعين ، من أخبت
الرجل : إذا سار فى الخبيث وهو المطمئن من الأرض ، وجلت : أى خافت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن تعظيم الشعائر من أعظم دعائم التقوى ، وأن محل
نحرها هو البيت العتيق - قفى على ذلك ببيان أن الذبح وإراقة الدماء على وجه
التقرب إليه تعالى ليس بخاص بهذه الأمة ، بل لكل أمة مناسك وذبائح تذكر بالله
حين ذبحها والشكر له على توفيقه لإقامة هذه الشعائر ، فالإله واحد والتكاليف
تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والمصالح ، وبعدئذ أمر رسوله أن يبشر
المتواضعين الخاشعين لله الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقناهم بجنات تجرى من
تحتها الأنهار .

الإيضاح

(وإلّا لكل أمة جعلنا منسكا) أى جعلنا لأهل كل دين من الأديان التى سلفت
من قبلكم ذبائحاً يذبحونها ودما يريقونه على وجه التقرب لله ، وليس ذلك خاصا بقوم
دون آخرين .

ثم بين السبب فى ذلك فقال :

(ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) أى وإنما شرعنا لهم
ذلك كى يذكروا الله حين ذبحها ، ويشكروه على ما أنعم به عليهم ، إذ هو
المقصود منهم .

وفى الصحيحين عن أنس قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين
أملحين (فيهما بياض يخالطه سواد) أقرنين فسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما »
وروى أحمد عن زيد بن أرقم قال : « قت يارسول الله ما هذه الأضاحى ؟ قال :

« سنة أبيكم إبراهيم » قالوا مالنا منها ؟ قال : « بكل شعرة حسنة » قالوا فالصوف ؟ قال : « بكل شعرة من الصوف حسنة » .

ثم أخبر سبحانه بتفرد الألوهية وأنه لا شريك له فقال :

(فإلهكم إله واحد فله أسلموا) أى فإن معبودكم واحد وإن اختلفت العبادات على حسب الأزمنة والأمكنة ونسخ بعضها بعضها ، فما المقصد منها جميعا إلا عبادة الله وحده لا شريك له كما قال : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » فأخلصوا له العمل واستسلموا لحكمه وانقادوا له فى جميع ما كلفكم به .

(وبشر الخبيثين) أى وبشر أيها الرسول الخاضعين لله بالطاعة ، المذعنين له بالعبودية ، المنيبين إليه بالتوبة ، بما أعد لهم من جزيل ثوابه ، وجيل عطاءه .

ثم بين سبحانه علاماتهم فقال :

(١) (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أى إنهم إذا ذكر الله عرتهم رهبة من خشيته ، وخوف من عقابه .

(٢) (والصابرين على ما أصابهم) من النوائب والحن فى طاعة الله .

(٣) (والمقيمي الصلاة) أى والمؤدين حقه تعالى فيما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة فى الأوقات التى حددها لهم .

(٤) (ومما رزقناهم ينفقون) أى وينفقون بعض ما آتاهم الله من طيب الرزق فى وجوه البر وعلى أهلهم وأقاربهم وعلى الخلق كافة ، ومن ذلك إهداء الهدايا التى يغالون فى أثمانها .

وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا
اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ

وَالْمُعْتَرِّ ، كَذَلِكَ سَخَّرْنَاَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ
 اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا
 لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَذَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) .

شرح المفردات

البدن : واحدها بدنة ، وهى الناقة أو البقرة التى تنجر بمكة ، وتطلق على الذكور
 والأنثى ، وشعائر الله : أعلام دينه التى شرعها لعباده ، صواف : أى قائمات قد صفت
 أيديهن وأرجلهن ، واحدها صافة ، وجبت جنوبها : أى سقطت جنوبها على الأرض
 ويراد بذلك زهقت أرواحها وفقدت الحركة ، القانع : أى الراضى بما عنده وبما يعطى
 من غير مسألة ، قال اميد :

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقى بالمعيشة قانع

والمعترّ : أى المتعرض للسؤال ، المحسنين : أى المخلصين فى كل ما يأتون وما
 يذرون فى أمور دينهم .

المعنى الجملى

بعد أن حث سبحانه على التقرب بالأنعام كلها ، وبين أن ذلك من تقوى
 القلوب ، خص من بينها الإبل لأنها أعظمها خلقا ، وأكثرها نفعا ، وأنفسها قيمة .

الإيضاح

(والبدن جعلناها لكم من شعائر الله) امتنّ سبحانه على عباده بأن خلق لهم
 البدن وجعلها من شعائره ، فتهدى إلى بيته الحرام ، بل جمعها أفضل ما يهتدى إليه .
 وطلاق البدنة على البعير والبقرة هو قول معظم أئمة اللغة وهو مذهب أبى حنيفة
 وقول عطاء وسعيد بن المسيّب من التابعين ، وروى عن بعض الصحابة فقد أثر عن
 ابن عمر رضى الله عنهما : لا تعلم البدن إلا من الإبل والبقر ، وتجزى البدنة عن سبعة

لما رواه أبو داود عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة » .

(لكم فيها خير) أى لكم فيها نفع فى الدنيا كالركوب واللبن ، وأجر فى الآخرة بنحرها والتصدق بها .

(فاذكروا اسم الله عليها صرافاً) أى فاذكروا اسم الله على البدن حين نحركم إياها قائمات قد صغفن أيديهن وأرجلهن ، وقولوا : بسم الله والله أكبر ، اللهم منك وإليك .
(فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر) أى فإذا سقطت وزهقت أرواحها ولم يبق لها حركة ، فكلوا منها وأطعموا القانع المستغنى بما تعطونه وهو فى بيته بلا مسألة ، والمعتر الذى يتعرض لكم ويأتى إليكم لتطعموه من لحمها .
وخلاصة ذلك - كلوا وأطعموا .

(كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) أى هكذا سخرنا البدن لكم مع عظم أجرامها وكال قوتها ، فلا تستعصى عليكم ، بل تأتى إليكم منقادة فتعقلونها وتحبسونها صافة قوائمها ثم تطعنونها فى لباتها ، لتشكروا إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص فى أعمالكم .

ولما حث سبحانه على التقرب بها مذكورا اسمه عليها - بين السبب فقال :
(لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) أى لن ينال رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهرقة بالنحر ، ولكن ترفع إليه الأعمال الصالحة والإخلاص فيها بإرادة وجهه تعالى فحسب .

والخلاصة - لن يُرضى المضحون ربهم إلا إذا أحسنوا النية وأخلصوا له فى أعمالهم ، فإذا لم يراعوا ذلك لم تنفع عنهم التضحية والتقرب بها شيئا وإن كثرت ذلك ، فقد جاء فى الصحيح : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أثوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

ثم كرر سبحانه التنبيه على عظم تسخيرها منبها على ما أوجب عليهم بقوله :

(كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَكْبَرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) أى هكذا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَشْكُرُوهُ عَلَى هِدَايَتِهِ إِيَّاكُمْ لِمَعْلَمِ دِينِهِ ، وَمَنَاسِكَ حُجَّهِ ، فَتَقُولُوا : اللَّهُ أَكْبَرُ عَلَى مَا هَدَانَا .
وَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَوْلَانَا .

ثم وعد من امثل بقوله :

(وبشر المحسنين) أى وبشر أيها الرسول الذين أطاعوا الله فأحسنوا
فى طاعتهم إياه فى الدنيا - بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ
كَفُورٍ (٣٨) أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظُلُمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ
وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدُمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ
وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ
اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ
الْأُمُورِ (٤١) .

شرح المفردات

أذن : أى رخص ، الصوامع : واحدها صومعة ، وهى معبد الرهبان فى الصحراء
- الدير - والبيع : واحدها بيعة وهى معبد النصارى ، والصلوات : واحدها صلاة
معرب صلواتا بالعبرية معبد اليهود ، ومساجد : واحدها مسجد ، وهو معبد المسلمين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه صدّ المشركين عن دين الله وعن المسجد الحرام ، ثم أردفه بذكر مناسك الحج و بين ما فيها من منافع في الدين والدنيا - قفى على ذلك ببيان ما يزال الصد عنه و يؤمن معه من التمكن من أداء تلك الفريضة على أتم الوجوه .

الإيضاح

(إن الله يدافع عن الذين آمنوا) أى إن الله يدفع عن عباده الذين توكّلوا عليه وأنابوا إليه - شر الأشرار وكيد الفجار ، ويكلّوهم وينصرهم على أعدائهم ويكتب لهم الفلاح عليهم والظفر بهم كما قال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » . ثم ذكر السبب في وعيدهم بقوله :

(إن الله لا يحب كل خوان كفور) أى وإنما دفعهم وقهرهم ، لأنهم خانوا أمانة الله وهى أوامره ونواهيه ، وكفروا أنعمه التى يسديها إليهم بكرة وعشيا وعبدوا غيره مما لا يضر ولا ينفع .

وفى هذا إيماء إلى أن المؤمنين هم أحباء الله .

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) أى رخص للمؤمنين وأبيح لهم أن يقاتلوا المشركين لظلمهم إياهم ، فقد كانوا يؤذون أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أذى شديدا فيأتون إليه بين مضروب ومشجوج فى رأسه ويتظلمون إليه فيقول لهم صبرا صبرا ، فإنى لم أؤذن بالقتال حتى هاجر ، ونزل الله هذه الآية ، وهى أول آية نزلت بالإذن بالقتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية كما رواه الحاكم فى المستدرک عن ابن عباس .

ثم وعدهم بالنصر ودفع أذى المشركين عنهم فقال :

(وإن الله على نصرهم لقدير) أى وإن الله على نصر المؤمنين الذين يقاتلون فى سبيله لقادر ، وقد فعل فأعزم ورفعهم وأهلك عدوهم وأذلهم بأيديهم .

وفي هذا الأسلوب مبالغة عظيمة زيادة في توطين عزائم المؤمنين وتثبيتهم على الجهاد في سبيله .

وبمعنى الآية قوله : « فَإِذَا تَقَيَّمُ الَّذِينَ كَفَرُوا قَصَرَبَ الرَّقَابِ حَتَّى إِذَا أُخِنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَدًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » وقوله : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » وقوله : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » .

وإنما شرع الجهاد بعد الهجرة إلى المدينة ، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر من المؤمنين عددا حتى أخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم وهما يقتله وشردها أصحابه فذهبت طائفة منهم إلى الحبشة وذهب آخرون إلى المدينة فلما استقروا بالمدينة واتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمعوا إليه وقاموا بنصره وصارت المدينة لهم دار إسلام ومعقلا يلجئون إليه - شرع الجهاد وتأت الآيات مرخصة فيه .

روى أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس أنه قال : لما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون . ليهلكن القوم . فأنزل الله : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) قال أبو بكر : فعرفت أنه سيكون قتال . ثم وصف سبحانه هؤلاء المؤمنين بقوله :

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) أى أولئك المظلومون هم الذين أخرجهم المشركون من مكة إلى المدينة وعذبوا بعضهم وسبوا بعضا آخر ، وما كان لهم من إساءة إليهم ولا ذنب جنوه إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له .

ونحو الآية قوله : « يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِنَّا لَهُمْ رَافِقُونَ »
 وقوله فى قصة أصحاب الأخدود « وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ
 الْحَمِيدِ » .

ولما كان المسلمون ينادون حين بناء الخندق :

لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّينَا

فأنزل : سَكِينَةً عَيْنِنَا وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ إِنَّا لَأَقِينَا

إِنِ الْآلَى بَعَاوَا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَعِينَا

كان رسول الله يرافقتهم ويقول معهم آخر كل قافية ، فإذا قالوا : إذا أرادوا
 فتنة أعيننا - يقول أعيينا ويمد بها صوته .

ثم حرص المؤمنين على القتال وبين أنه أجرى العادة به فى الأمم الماضية
 لينتظم أمر الجماعات وتقوم الشرائع وتصان بيوت العبادة من الهدم فقال :

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد
 يذكر فيها اسم الله كثيرا) أى فمقاتل المؤمنون الكافرين ، فلولوا القتال وتسليط
 المؤمنين على المشركين فى كل عصر وزمان لهدمت فى شريعة كل نبي معابد أمته ،
 فهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود ومساجد المسلمين التى
 يذكر فيها اسم الله كثيرا .

وفى هذا ترقى وانتقال من الأقل إلى الأكثر حتى انتهى إلى المساجد وهى
 أكثر عمارة وأكثر عبادة وهم ذوو القصد الصحيح .

والخلاصة -- إنه لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء بعضهم
 ببعض وإقامة حدود الأديان لاستولى أهل الشرك على مواضع العبادة وهدموها ،
 وقد يكون المراد - لولا هذا الدفع لهدمت فى زمن موسى الكنائس وفى زمن عيسى
 الصوامع والبيع وفى زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد .

(ولينصرن الله من ينصره) أى وليعينن الله من يقاتل فى سبيله لتكون كلمته

العليا وتكون كلمة عدو دينه السفلى ، ولقد أنجز الله وعده وسلط المهاجرين والأنصار على صناديد قريش وأكسرة العجم وقيصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم .
ونحو الآية قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » .

(إن الله تقوى عزيز) أى إن الله تقوى على نصر من جاهد فى سبيله من أهل طاعته ، منيع فى سلطانه لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب .

ونحو الآية قوله : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ؛ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ »
وقوله : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَنَانَا لِعِبَادِنَا الْأَرْسَالِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

ثم وصف الله الذين أخرجوا من ديارهم بقوله :

(الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ) أى هؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم هم الذين إن مكنا لهم فى البلاد فقهروا المشركين وغلبوهم عليها - أطاعوا الله فأقاموا الصلاة على النجو الذى طلبه ، وأعطوا زكاة أموالهم التى حباها الله لهم ودعوا الناس إلى توحيده ، والعمل بطاعته ، وأمروا بما حث عليه الشريعة ، ونهوا عن الشرك واجتراح السيئات .
وخلاصة ذلك — إنهم هم الذين كلوا أنفسهم باستحضار المعبود والتوجه إليه فى الصلاة على قدر الطاقة ، وكانوا عوناً لأئمتهم بإعانة فقرائهم وذوى الحاجة منهم ، وكلوا غيرهم فافضوا عليهم من علومهم وآدابهم ، ومنعوا المفساد التى تعوق غيرهم عن الوصول إلى الرقى الخلقى والأدب السامى .

ثم وعد بإعلاء كلمته ونصر أوليائه فقال :

(وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) أى والله آخر الأمور ومصايرها فى الثواب عليها أو العقاب

فى الدار الآخرة .

ونحو الآية قوله : « وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودُ (٤٢)
 وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ
 لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ
 أَهْنَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ
 مَشِيدٌ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا
 أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي
 فِي الصُّدُورِ (٤٦) .

شرح المفردات

أملت : أى أهملت ، أخذتهم : أى أهلكتهم ، فكيف استفهام يراد به
 التعجب ، والنكير والإنكار على الشيء : أن تفعل فعلا به يزجر المنكر عنه على
 مافعل . خاوية : ساقطة ، وعروشها : أى سقوفها ، معطلة : أى عطلت من منافعها ،
 مشيد : أى مبنى باشيد ، وهو الجص (الجير) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف أن المشركين أخرجوا المؤمنين من ديارهم بغير
 حق . وأنه أذن لهم فى مقاتلتهم وضمن لهم النصر عليهم - أردف هذا بتسليمة
 الرسول صلى الله عليه وسلم على ما يرى من قومه ، وتصديره على أذاهم وتكذيبهم
 إياه ، فأبان له أن هذا التكذيب ليس بدعاً فى الأمم ، فكثير منها قد كذبت رسالها
 فحل بها من البوار ما فيه عبرة لمن اعتبر وتذكر . مما يشاهدونه رأى العين فى حالهم
 وترحالهم ، وفى غدوهم ورواحهم ، فلا تحزن على ما ترى واصبر فإن العاقبة للمتقين .

الإيضاح

(وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير) أى فإن يكذبك هؤلاء المشركون بالله على ما أتيتهم به من الحق وما تعدهم به من العذاب على كفرهم به ، فلست بأوحدى فى ذلك ، فتلك سنة إخوانهم من الأمم الخالية المكذبة لبسها ، وذلك منهاج من قبلهم ، فلا يصدك ذلك فإن العذاب من ورائهم ، ونصرى إليك وأتباعك عليهم آتٍ لا محالة ، كما أتى عذابى على أسلافهم من الأمم من قبلهم بعد الإمهال ، فإذ أمهلت أهل الكفر من هذه الأمم فلم أعاجلهم بالقمعة والعذاب ثم أحللت بهم عقابى بعدئذ ، فانظر أيها الرسول كيف كان تغييرى ما كان بهم من نعمة ، وتشكرى لهم عما كنت عليه من الإحسان إليهم - ألم أبدلهم بالكثرة قلة وبالحياء موتا وهلاكا وبالعمارة خرابا . فكذلك سأفعل بمكذبيك من قریش وإن أملت لهم إلى آجالهم ، فإنى منجرك وعدى فيهم كما أنجزت غيرك من رسلى وعدى فى أممهم فأهلككنهم وأنجيت رسلى من بين أظهرهم .

ونحو الآية قوله : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

(فكأن من قرية أهلكتها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) أى وكثير من القرى أهلكتها إذ كان أهلها يعبدون غير من ينبغى أن يعبد ، ويعصون من لا ينبغى أن يعصى . فخوت من مكانها وتساقطت على عروشها ، أى سقطت حيطانها فوق سقوفها ، وكمن من بئر عطلتها بإفناء أهلها وهلاك واديها ، فلا واردة لها ولا صادرة منها ، وكمن من قصر شيد بالصخور والجص قد خلا من سكانه بما أذقنا أهله من عذابنا بسوء أفعالهم فبادوا وبقيت القصور المشيدة خالية منهم ، قال قتادة : شيدوه وحصنوه ، فهلكوا وتركوه .

ثم أكد لهم صدق وعيده وأحالهم على ما يشاهدون بكرة وعشيا فقال :
 (أو لم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقون بها أو آذان يسمعون بها)
 أى أفلم يسر هؤلاء المكذبون بآيات الله الجاحدون لقدرته - فى البلاد فينظروا إلى
 مصارع ضرب بأنهم من مكذبى رسل الله الذين خلوا من قبلهم كعاد وتمود وقوم لوط
 وشعيب ، و يروا أوطانهم ومساكنهم ويسمعوا بأذنانهم أخبارهم فيتفكروا ويعتبروا
 بها ويعملوا أمرها وأمر أهلها ، وكيف نابتهم النوائب وغالتهم غوائل الدهر ؟ فيكون
 فى ذلك معتبر لهم لو أرادوا فينكبوا إلى ربهم ويعقلوا حججه التى بثها فى الآفاق .
 ثم أظهر اليأس من إيمانهم لأن القلوب قد عميت فلا تبصر الدلائل الكونية
 ولا البراهين العقلية فقال :

(فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) أى إن أبصارهم
 وإن كانت سالمة لا عمى بها فقد أصابهم عمى القلوب ، والعمدة على الثانى لا على
 الأول ، فعمى الأبصار ليس بشىء إذا قيس إلى عمى القلوب والبصائر .

وفى هذا تهويل أيمما تهويل ، وفى وصف القلوب بكونها فى الصدور فضل
 توكيد كما جاء فى قوله تعالى : « يَقُولُونَ يَا أَفْوََاهِهِمْ » فقد تعورف أن مكان العمى
 هو البصر بأن تصاب الحديقة بما يطمس نورها ، فحين أريد إثبات ما هو خلاف
 الأصل بنسبته إلى القلوب ونفيه عن الأبصار احتيج إلى زيادة تعيين وفضل تعريف
 ليقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار ، وهذا على سنن قولهم : ليس المضاء
 للسيف ولكن للسان (الذى بين فكّيك) - فكأنهم قالوا ما نفينا المضاء عن
 السيف وأثبتناه للسان فلتة وسهوا ، بل تعمدا ذلك تعمدا .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ
 كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ

ثُمَّ أَخَذَتْهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ (٤٨) قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) .

شرح المفردات

الإنذار : التخويف ، وأصل السعى : الإسراع في المشى ، ثم استعمل في الإصلاح والإفساد ، يقال سعى في أمر فلان : إذا أصاحه أو أفسده بسعيه فيه ، معاجزين : أى مسابقين المؤمنين ومعارضين لهم فكلموا طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله ، وأصله من قولهم : عاجزه فأعجزه ، إذا سبقه فسبقه .

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه أن المشركين كذبوا رسوله وبالفوا في تكذيبه وسلاه عن ذلك بأنك لست ببديع في الرسل ، فكثير من قبلك منهم قد كذبوا وأوذوا فلا تبتئس بما يفعلون ، واصبر على ما تدعو إليه ولا يضيرنك ما يأتون وما يذرون - قفى على ذلك ببيان أنهم لاستهزائهم به وشديد تكذيبهم كانوا يستعجلونه العذاب كما قال تعالى حكاية عنهم : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » ثم أنبهم على إنكار ذلك العذاب وقد سبق وعد الله به فكان لزاما عليهم ألا يستعجلوه ، فإنهم لو عرفوا ما ينالهم من آلامه وشدائده ما طلبوا استعجاله ، فيوم عند ربك تصيهم فيه الحن والشدائد كآلف سنة لو بقوا وعذبوا في الدنيا ، ثم ذكرهم بأن كثيرا من القرى الظالمة أهلها ولم تعذب ، لعلها ترعوى عن غيرها ثم أخذت أخذ عزيز مقتدر وحسابها مدّخر ليوم تشخص فيه الأبصار ، ثم أبان أن وظيفة الرسول إنما هي الإنذار والتحذير وليس

عليهم من حسابهم من شيء ، فإن شاء الله عجل لهم العذاب وإن شاء أخره عنهم ، وقد وعد الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالمغفرة من الذنوب ودخول دار النعيم وأوعد الذين يشبطن العزائم عن قبول دعوة الإسلام بدوام العذاب في نار الجحيم .

الإيضاح

(ويستعجلونك بالعذاب) أى ويستعجلك كفار قريش المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر - محيى العذاب الذى تحذرهم به وتوعدهم إياه ، إنكارا منهم لوقوعه واستهزاء بحوله .

ثم بين أنه آت لا محالة فقال :

(وإن يخلف الله وعده) أى وكيف ينكرون محيى ذلك العذاب وقد وعد الله به وما وعد به كائن لا محالة ، وهو كما فعل بمن قبلكم يفعل بكم ، لأن ذلك هو نهجهم الثابت وصراطه المستقيم ، وسيحل بكم مثل ما حل بغيركم .

(وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) أى وإن قلتم إن العهد قد طال ولم يحل بهم العذاب فأين هو ؟ فإن الله حلیم ، وألف سنة عندهم كأيوم عنده ، فهو سينفذ وعده بعد أمد طويل عندهم قريب عنده كما قال : « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَتَرَاهُ قَرِيبًا » فإذا تأخر عذاب الآخرة أمدًا طويلًا فلا يكون فى ذلك إخلاف للوعد ، فعشرون ألف سنة عند ربك كعشرين يوما عندهم .

والخلاصة — إن سننى لابد من نفاذها ولابد من إهلاك الظالمين ولو بعد حين أما وأفراد فى الدنيا والآخرة أو عذابهم فى الآخرة فحسب مع الأكداد فى الدنيا وهم لا يشعرون .

ثم أكد ما ذكره من عدم إخلاف الوعد وإن طال الأمد فقال :

(وكأئن من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير) أى وكمن قرية أخرت إهلاكها من استمرارها على ظلمها فاعتدت بذلك التأخير ، ثم أنزلت

بها بأسى وشديد انتقامى ، وحسابها بعد مدّخر ليوم الحساب حين لا ينفع مال ولا بنون إلا من أنى الله بقلب سليم .

ولا يخفى ما فى شديد الوعيد وعظيم التهديد .

ثم أبان لهم عظيم خطيئهم فى طيب استعجال العذاب من الرسول بقوله :

(قل يأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) أى قل يأيها المشركون المستعجلون مجئ العذاب : ليس ذلك إلىّ ، وإنما أرسلنى ربى نذيراً لكم بين يدى عذاب شديد وليس إلىّ من حسابكم من شىء ، بل أمر ذلك إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره عنكم ، وإن شاء تاب على من يتوب وينيب إليه : « لا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » .

ثم فصل هذا الإنذار بذكر الوعد للمتقين والوعيد للكافرين فقال :

(فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) أى فالذين آمنوا قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم - لهم مغفرة لما سلف من سيئاتهم وثواب عند ربهم على ما قدموا من حسناتهم ، ولهم رزق كريم فى الجنة يفوق وصف الواسفين ومقال المادحين كما قال تعالى : « فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ » وفى الحديث : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

(والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم) أى والذين اجتهدوا فى رد دعوة الدين والتكذيب بها وثبطوا الناس عن متابعة النبى صلى الله عليه وسلم ظناً منهم أنهم يعجزوننا وأنهم لا يبعثون ، فأولئك هم المقيمون فى النار المصاحبون لها لا يخرجون منها .

ونحو الآية قوله : « الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الَّذِي كَانُوا يَفْسُدُونَ » .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَوَلَّى بَطْشَ الشَّيْطَانِ فِي أُفْتِنِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْزَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يُحْكَمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧) .

شرح المفردات

الرسول : من جاء بشرع جديد ، والنبي يشمل هذا ويشمل من جاء لتقرير شرع سابق كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام ، والتنبي والأمنية : القراءة كما قال تعالى : « وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَفْقَهُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ » أى لإقراءة ، وقال حسان فى عثمان حين قتل :

تمنى كتاب الله أول ليلة وأخرها لاقى حمام المقدار

وينسخ : أى يزيل ويبطل ، يحكم : أى يجعلها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بحال ، فتنة : أى ابتلاء واختبارا ، مرض : أى شك ونفاق ، القاسية قلوبهم : هم الكفار المجاهرون بالكفر ، شقاق بعيد : أى عداوة شديدة ، فتخبت : أى تذل وتخضع ، مرية : أى شك ، بغتة : أى فجأة ، الساعة : الموت ، يوم عقيم : أى منفرد عن سائر

الأيام لا مثيل له في شدته والمراد به الحرب الضروس ، الملك : أى التصرف
والسلطان ، يحكم بينهم : أى يقضى بين فريق الكافرين والمؤمنين ، مهين : أى مذل
جزاء استكبارهم عن الحق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر في الآيات السابقة أن قومه قد كذبوه بوسائل شتى من التكذيب
فقلوا تارة إنه ساحر ، وأخرى إنه شاعر ، وثالثة إن القرآن أساطير الأولين ،
ثم سلاه عن هذا بأن ليس بدعا من الرسل ، فكثير قبله قد كذبوا ، ثم ذكر أنهم
لعظيم استهزائهم به وتهكمهم بما يبلغهم عن ربه - طلبوا منه استعجال العذاب الذى
يعدهم به - أردف ذلك بذكر نوع آخر من التكذيب وهو إلقاؤهم الشبه والأوهام
فيما يقرؤه على أوليائه من القرآن ليجادلوه بالباطل ويردوا ما جاء به من الحق ويكون
في ذلك فتنة لنضعاف الإيمان وللكافرين ، ويزداد المؤمنون إيمانا و يقينا بأنه الحق
من ربهم فتخبت له قلوبهم ، وإن هذه حالهم حتى يموتوا أو يأنيهم عذاب لا يبلغ
الوصف كنهه حقيقته ، وعندئذ يحكم الله بين عباده فيدخل الذين آمنوا وعملوا
الصالحات جنات النعيم ، ويجازى الذين كذبوا بآياته وكانوا فى مرية من رسالة
رسوله بالعذاب الممين جزاء وفاقا على تدسية أنفسهم وتدنيسها بزناغ العقائد وسىء
الأعمال وباطلها .

الإيضاح

(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته)
أى وما أرسلنا قبلك رسولا ولا نبيا إلا إذا قرأ ألقى الشيطان على سامعيه وهو يتلو
الوحى الذى أنزل إليه - شبهات فيما يقرأ فيقول قوم إنه سحر ويقول آخرون إنه
نقله الرسول عن بعض الأولين وهكذا من الأباطيل والترهات التى يتقولونها .

(فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته) أى فيزيل سبحانه تلك الخرافات التى عمت ببعض النفوس ، بأن يقيض للدين من يدافع عنه ويدفع الشبهات ثم يجعل آياته محكمة مثبتة لا تقبل الرد بحال .

وخلاصة ذلك — إن الله حين أنزل القرآن وقرأه الرسول فال مشركون فيه صافئوا ، ثم استبان الحق وجاءت غزوة بدر ونصر الله المسلمين الذين بشرهم كتابه بالنصر على أعدائهم كما قال : « وَكَيْنَصْرُنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » استتب لهم الأمر ودخل أعداؤهم فى دينهم أفواجا « وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا » . وما مثل هذا إلا مثل النباتات الطفيلية التى تنبت فى الأرض بجانب ما يزرع فيها من حنطة وفول وغيرها مما يحتاج إليه الناس ، ولا تزال تتغذى من الأرض وتأخذ غذاء النبات النافع ، فلا يهدأ للزارع بال حتى يزيلها ويوفر غذاءها للنبات الذى هو فى أشد الحاجة إليه .

وما أشبه الليلة بالبارحة ، فإنك الآن ترى أهل أوربا يرسلون الجيوش من القساوسة التى تفتح المدارس فى بلاد الشرق ويقومون المسلمين : إن دينهم محشو بالخرافات والأكاذيب ويشككون من تملأوا فى تلك المدارس فيه ويصدق بعض غوغائهم تلك الأباطيل حتى لقد فلو إن هذا الدين لا يعيش فى ظل العلم ولا يقبل لأفكار والآراء الراقية ، وهو والعلم عدوان لا يجتمعان ، ومما جعل لهم بعض المذرة فيما يقولون ، حال المسلمين من الخمول وسوء الأحوال وقبيح المعتقدات والأعمال مما جعلهم مضغة فى أفواه الأمم المتدبنة : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » . وإن الله لينسخ تلك الوسواس ويزيل هذه الأوهام ، فقد تصدى كثير من ذوى المعرفة ندحض تلك المفتريات ، فقام العالم الحكيم محمد عبده وألف كتابه [الإسلام والنصرانية] ودفع كثيرا من مطاعن أولئك المبشرين ، وقام بعده كثير من أهل الفقه بالدين فاحتذوا حذوه وواصلوا الليل بالنهار فى دحض تلك الشبه ، وإن الله ناصر دينه ولو كره الكافرون .

هذا وقد دس بعض الزنادقة في تفسير هذه الآية أحاديث مكذوبة لم ترد في كتاب من كتب السنة الصحيحة ، وأصول الدين تكذيبها ، والعقل السليم يرشد إلى بطلانها وأنها ليست من الحق في شيء ، وهي مما تشكك المسامحين في دينهم وتجعلهم في حيرة من أمر الوحي وكلام الرسول ، فيجب على العلماء طرحها وراءهم ظهريا ولا يضيعون الزمن في تأويلاتها وتخريجها ، ولا سيما بعد أن نص الثقات من المحدثين على وضعها وكذبها لمصادمتها لأصول الدين التي لا تقبل شكاً ولا امتراء .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بكل شيء ، ومن ذلك ما يصدر عن الشيطان وأوليائه فيجزيهم عليه أشد الجزاء ، حكيم في أفعاله ، ومن ذلك أن يمكن الشيطان من إلقاء الشبهات ، ليحاج أولياؤه بها ، فيتمكن المؤمنون من ردها ودحض المفتريات التي يتشدقون بها ، ويرجع الحق إلى نصابه ، فتظهر الحقيقة ناصعة بيضاء من بين تلك الظلمات ، فتمحو الظلام الذي كان عالقاً بنفوس الذين في قلوبهم مرض ، وتضيء آفاق العقول السليمة وتهديهم إلى طريق الرشاد ؛ وإلى الفريقين أشار بقوله :

(١) (ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم) أى ليجعل مايلقيه الشيطان على قلوب أوليائه فتنة واختبارا للمنافقين الذين في قلوبهم مرض وللكافرين الذين قست قلوبهم ، فلا نلين لقبول الحق ، ولا ترعوى عما هي فيه من الغي .

ثم بين مجازفة هذين الفريقين للحق وبعدها عن الرشد لا إلى غاية فقال :

(وإن الظالمين لفي شقاق بعيد) أى وإن هذين الصنفين من الضلال لفي عداوة لأمر الله وبعد عن الرشاد والسداد بما لامطمع لهما معه في النجاة والفوز برضا الله .

(٢) (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم)

أى ولكى يعلم أهل العلم بالله أن الذى أنزله الله من آياته التى أحكمها ونسخ ما ألقى الشيطان - أنه الحق من ربهم فيصدقوا به وتخضع له قلوبهم وتدعن للإقرار به نفوسهم ، وتعمل بما فيه من عبادات وآداب وأحكام وهى مُشَدَّجَة الصدر هادئة مطمئنة يبرد اليقين والسير على نهج سيد المرسلين .

ثم بين حسن مآلهم وفوزهم بسعادة العقبى فقال :

(وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) أى وإن الله لمرشد الذين آمنوا به وصدقوا برسوله ، وموفقهم إلى الحق الواضح بنسخ ما ألقى الشيطان فى أمنية رسوله حين تلاوة الوحي ، وحفظ أصول الدين الصحيحة فى نفوسهم والعمل بها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وخلاصة ذلك — إن الله ليمهّد الذين آمنوا إلى تأويل ماتشابه من الدين وتفصيل ما أجمل منه بما تقتضيه الأصول المحكمة . فلا تلحقهم خيرة ولا تعزيهم شبهة ولا تزلزل أقدامهم ترهّات المبطلين .

ثم أردفه ببيان مآل الطريق الأول فقال :

(ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيتهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) أى ولا يزال الكافرون فى شك مما ألقى الشيطان فى قلوبهم حين قراءة القرآن عليهم حتى يأتيهم الموت فجأة وهم فى بيوتهم آمنون ، أو يشتبكوا مع المؤمنين فى قتال يهلك فيه أبطالهم وصناديدهم كما حدث يوم بدر .

وفد جعل هذا اليوم عقيما ، لأنّ المقاتلين يُسمَوْنَ أبناء الحرب ، فإذا هم قُتِلُوا وصف هذا اليوم بأنه عقيم .

وخلاصة هذا — إنه لا مطمح فى إيمانهم ، ولا لزوال المرية من قلوبهم ، فهم لا يزالون كذلك حتى يهلكوا .

و بعد أن بين سبحانه حال الفريقين فى الدنيا أرشد إلى حالهم فى الآخرة فقال :
(الملك يومئذ لله يحكم بينهم) أى إذا جاء يوم القيامة حكم ربهم بينهم بالحق

وجازى كلا منهما بما هوله أهل وبما أعد نفسه له فى الدنيا من عمل صالح زكى به نفسه وطهر روحه أو عمل سيئ دساها به فرانت على قلبه غشاوة الشكوك والأوهام واجترام المعاصى والآثام .

ثم فصل هذا الحكم والحكموم عليهم فقال :

(فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم) أى فالذين آمنوا بهذا القرآن وبمن أنزله وبمن جاء به وعمل بما فيه من أوامر ونواه - يثيبهم ربهم جنات النعيم يتمتعون فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، جزاء وفاقا على ما زكوا به أرواحهم وأخلصوا له فى أعمالهم وراقبوا ربهم فى السر والعلن وخافوا عذابه فى ذلك اليوم الذى تشيب من هوله الولدان .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين) أى والذين كفروا بالله وكذبوا رسوله وجحدوا بآيات كتابه وقالوا إنما هو إفك افتراه محمد وأعانه عليه قوم آخرون - أولئك لهم عذاب عند ربهم يذلمهم ويخزيهم كغفاء استكبارهم عن النظر فيها وجحدهم بها عنادا وقد كان لهم فيها لو تأملوا حق التأمل ما يكون صاداً لهم عن غيرهم ورادعاً لهم عن ضلالهم .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا آيُرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لِيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِزْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ

هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ (٦٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلّت قدرته أن الملك له يوم القيامة وأنه يحكم بين عباده المؤمنين
والكافرين ، وأنه يدخل المؤمنين جنات النعيم - أردف ذلك بذكر وعده الكريم
للمهاجرين في سبيله بأنه يرزقهم الرزق الحسن ويدخلهم مدخلا يرضونه ، ثم بذكر
وعده لمن قاتل مبعيا عليه بأن اضطر إلى الهجرة ومفارقة الوطن بأنه ينصره وهو
قدير على ذلك ، إذ من قدر على إدخال الليل في النهار وإدخال النهار في الليل ،
بأن يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر - يقدر على نصره ، وهو الثابت الإلهية
وحده ، ولا يصلح لها إلا من كان كامل القدرة كامل العلم ، وأن ما سواه باطل
لا يقدر على شيء .

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسي قال : سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول « من مات مرابطا أجرى عليه الرزق وأمن من القتاتين
واقرءوا إن شئتم : (والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم الله رزقا
حسنا وإن الله لهو خير الرازقين . ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حلیم) » .
أخرج ابن جرير وابن المنذر عن فضالة بن عبيد الأنصاري الصحابي أنه كان
بموضع فمروا بجنازتين إحداها قتيل والأخرى متوفى ، فقال الناس على القتيل ، فقال
فضالة : مالى أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا هذا القتيل في سبيل الله ،
فقال والله لا أبالي من أى حفرتيهما بعثت ، اسمعوا كتاب الله (والذين هاجروا
في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا) الآية .

وروى عن أنس أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المقتول
في سبيل الله والمتوفى في سبيل الله بغير قتل هما في الأجر شريكان » .

الإيضاح

(والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين) أى والذين فارقوا أوطانهم وتركوا عشايرهم فى رضا الله وطاعته وجهاد أعدائه ، ثم قتلوا أو ماتوا وهم كذلك - ليثيبنهم الله الثواب الجزيل جزاء ما ناضلوا عن دينه وأخلصوا فى الذود عنه ، وإن الله ليعطى من يشاء بغير حساب ، ويرزق الخلق كافة بارهم وفاجرهم .

ثم بين هذا الرزق الحسن بقوله :

(ليدخلنهم مدخلا يرضونه) أى ليدخلن المقتولين فى سبيله والموتى مهاجرين فى طاعة ربهم وذودا عن دينه - جنات النعيم ويكرمون فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما لا ينافهم فيها مكروه ولا أذى كما قال « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » .

(وإن الله لعليم حلیم) أى وإن الله الذى عمت رحمته وعظمت نعمته - لعليم بمقاصدهم وأعمالهم وأعدائهم ، حلیم فلم يعاجل هؤلاء المكذبين بالعقوبة جزاء تكذيبهم ومقاومتهم دعوة الدين .

(ذلك) أى ذلك الرزق الحسن والمدخل الكريم لمن قتلوا فى سبيل الله أو ماتوا ، ولهم أيضا النصر فى الدنيا على أعدائهم وإلى ذلك أشار بقوله :

(ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله) أى وإن من جازى من المؤمنين بمثل ما عوقب به ظالما من المشركين ، فقاتلهم كما قاتلوه ثم بغى عليه باضطرابه إلى الهجرة ومفارقة الوطن - لينصرنه الله الذى لا يغالب ، ولينتقمن له من أعدائه ولينككن بهم ويمكنه منهم ويجعل كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .
والخلاصة - إنه تعالى كما يدخلهم مدخلا كريما ، يعدهم بالنصر على أعدائهم إذا هم قاتلوه وبعوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم .

(وإن الله لعفو غفور) أى وإن الله الذى أحاطت قدرته بكل شىء - ليعفو عن المؤمنين ، فيعفو لهم ما أمتعوا فيه من الانتقام وما أعرضوا عنه مما ندبه الله من العفو بمثل قوله : «وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» وقوله : «فَمَنْ عَفَا وَأَصْحَبَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» وفوله : «وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» وهم بفعلهم هذا تركوا ما كان أجدر بهم وأحرى بمثلهم .

والخلاصة - كأنه سبحانه قال : عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها لهم لأنى أذنت بها .

ثم قرر نصره لعباده المؤمنين وأكده بقوله :

(ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى ذلك النصر الذى أنصره لمن بغي عليه ، لأنى أنا القادر على ما أشاء ، ألا تروننى أدخل ما ينقص من ساعات الليل فى ساعات النهار ، وأدخل ما ينقص من ساعات النهار فى ساعات الليل ، وبهذه القدرة التى تفعل ذلك أنصر محمدا وصحبه على الذين قد بغوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وآذوهم أشد الأذى على إيمانهم بالله وحده .

(وأن الله سميع بصير) أى وأن الله سميع للأقوال وإن اختلفت فى النهار الأصوات بفنون اللغات ، بصير بما يعملون لا يغيب عنه شىء ولا يعزب عنه شىء وإن كان مثقال ذرة .

ولما وصف نفسه بما لا يقدر عليه غيره علل ذلك بقوله :

(ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) أى إن الانصاف بكل القدرة وكمال العلم بسبب أن الله هو الثابت لذاته ، وأنه لا مثيل له ولا شريك ، وأن الذى يدعون من دونه من الآلهة باطل لا يقدر على صنع شىء بل هو المصنوع الموجد بعد العدم .

(وأن الله هو العلى الكبير) أى وأن الله فوق كل شىء وكل شىء دونه ، وهو الكبير عن أن يكون له شريك ، إذ لا شىء أعلى منه شأنًا ولا أكبر سلطانًا .

وخلاصة ذلك — أفنتركون أيها الجاهل عبادة من بيده النفع والضر وهو القادر على كل شيء وكل شيء دونه وهو فوق كل شيء وتعبدون من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا ؟ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِغُ الْأَرْضَ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) .

الإيضاح

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف عظيم قدرته وبلغ حكمته في ولوج الليل في النهار والنهار في الليل ، ونبه بذلك على سابغ نعمه على عباده أردف ذلك بذكر أنواع أخرى من الدلائل على قدرته فقال :

(١) (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِغُ الْأَرْضَ مُخْضَرَّةً) أى ألم تبصر أيها الرأى أن الله ينزل من السماء مطرا فيحيي به الأرض فتنبت ضروبا مختلفة من النبات بديعة الألوان والأشكال ذات خضرة سندسية تبهير العين بحسن منظرها وبديع تلسيقها .

(إن الله لطيف خبير) أى إنه تعالى لطيف يصل علمه إلى الدقيق والجليل ، خبير بمصالح خلقه ومنافعهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

(ب) (له مافى السموات ومافى الأرض وإن الله هو الغنى الحميد) أى إن كل مافى السموات ومافى الأرض منقاد له غير ممتنع من التصرف فيه ، وهو الغنى عن حمد الحمدنين ، لأنه كامل لذاته ، غنى عن كل ما عدها ، وقد فعل ما فعل إحسانا منه إلى عباده وتفضلا عليهم .

(ح) (ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض) أى إنه تعالى سخر مافى ظاهر الأرض وباطنها لينتفع به الإنسان فى مصالحه ومراقبته المختلفة ويصرفه فيما أراد من شئون معاشه ، ولا يزال العلم يهديه إلى غريب الأمور مما لم يكن يخطر لأسلافه على بال مما لو حدث به الساقون لقالوا إنه ترهات وأباطيل ولا صدقه بشر ، ولا يزال العلم يولد كل يوم جديدا : « وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » ويهتدى العقل إلى ما هو أشبه بالمعجزات لولا أن سدَّ أبواب النبوت .

ونحو الآية قوله : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مافى السَّمَوَاتِ وَمافى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » .
(د) (والفلك تجرى فى البحر بأمره) أى وسخر لكم السفن تجرى فى البحار برفق وتؤد حاملة ما تريدون من نائى الأصقاع وبعيد المسافات من سلع وحيوان وأناسى وبذلك يتم تبادل مرافق الحياة بالأخذ والعطاء .

(هـ) (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) أى وإن الله يمسك أجرام الكواكب من شمس وقمر وكواكب نيرات بنظام الجاذبية ، إذ جعل لكل منها مدارا خاصا بها لاتعدوه بحال ، ولا تزال كذلك ما بقيت الحياة الدنيا ، حتى إذا اقتربت الساعة اختل نظامها وانتشرت فى الفضاء كما ألمع إلى ذلك سبحانه بقوله : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَشَرَتْ » الآية .

ولولا هذا النظام الخاص لاصطدمت الكواكب العظيمة بعضها ببعض وفسد العالم الأرضى ولم يعيش على ظهر البسيطة إنسان ولا حيوان .

(إن الله بالناس لرؤوف رحيم) أى إنه تعالى رحيم بهم ، إذ جعل هذه العوالم على تلك الشاكلة ، ليتسنى لهم البحث عن أسباب معاشهم وأسباب منافعهم ، وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية على وجوده وبعثه رسله .
(و) وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم (أى وهو الذى أنعم عليكم بهذه النعم وجعل نكم أجساما حية بعد أن كنتم ترابا ، ثم يميتكم حين انقضاء آجالكم ثم يحييكم بالبعث والنشور إلى عالم آخر تلقون فيه حسابكم وجزاءكم ثم إلى نعيم أو جحيم .

ثم بين طبيعة الإنسان التى خلق عليها فقال :

(إن الإنسان لكفور) أى وإن الإنسان لم يوجه همه إلى كل هذه الآلاء التى يتقلب فيها ليل نهار ، بل جعدها وجحد خالقها على وضوح أمرها ، وعبد غيره وجعل له الأنداد من الأصنام والأوثان .

ونحو الآية قوله : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » وقوله : « قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ » .

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جَادُلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) .

شرح المفردات

المنسك : الشريعة والمنهاج ، ناسكوه : أى عاملون به ، والهدى : الطريق الموصل إلى الحق ، مستقيم : أى سوى لا عوج فيه .

المعنى الجملى

بعد أن قدم عز اسمه ذكر نعمه وأنه رءوف بعباده رحيب بهم ، وأن الإنسان كفور بطبعه ، ومن ثم جحد الخلق لهذه النعم - أتبعه بزجر معاصريه عليه السلام من أهل الأديان السماوية عن منازعته ، بذكر خطيئهم فيما تمسكوا به من الشرائع ، وبيان أن لكل أمة شريعة خاصة ، ثم أمره بالثبات على ما هو عليه من الحق ، وأنه لا يضره عناد الجاحدين ، فالله هو الحكم بينهم وبينه يوم القيامة .

الإيضاح

(لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه) أى إنا أنزلنا لأهل كل دين من الأديان السماوية شريعة خاصة يعملون بها ويسرون على نهجها لا يتخطونها إلى غيرها ، فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى منسكها مافى التوراة ، والأمة التى من مبعث عيسى إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم منسكها مافى الإنجيل ، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم من وجد حين مبعثه إلى يوم القيامة منسكهم مافى القرآن ، لأن لكل زمان ما يليق به من الشرائع التى تناسب من فيه فى تلك الحقبة . (فلا ينازعنك فى الأمر) أى فلا ينبغي لهم أن ينازعوك فى أمر هذا الدين ، فإن تعيينه تعالى لكل أمة شريعة خاصة موجب لطاعة هؤلاء لك وعدم منازعتهم إياك فى أمر هذه الشريعة زعماء منهم أن شريعتهم هى ما عين لأبائهم من التوراة والإنجيل ، فذلك خطأ منهم ، فإن ذلك إنما كان شريعة لمن مضى قبل نسخته بالقرآن .

والخلاصة — اثبت أيها الرسول على دينك ثباتاً لا يطمعون أن يجذبوك منه ليزيوك عنه ، والمراد بذلك تهيج حميته عليه السلام وإلهاب غضبه لله ولدينه ، ومثل هذا كثير فى كتاب الله ، وكأنه قد قيل له نأس بالأنبياء قبلك فى متاركة القوم الظالمين والإمساك عن مجاداتهم بعد اليأس من إيمانهم .

(وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم) أى وادع هؤلاء المنازعين إلى توحيد الله وعبادته ، إنك لعلى طريق يهذى إلى الحق ، وشرعة توصل إلى السعادة .

ونحو الآية قوله : « وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ » .

(وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون) أى وإن جادلوك هؤلاء المشركون فى نسكك بعد أن ظهر الحق ولزمتهم الحجة - فقل لهم على سبيل التهديد والوعيد : الله عليم بما تعملون وبما تعمل ، ومجازي كلا بما هو له أهل .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » وقوله : « هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » .

وبعد أن أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم وكان ذلك شديد الوقع على النفس سلاه بأن الله سيجازيهم لاحتجاج يوم القيامة على ما يقولون ويفعلون فقال :

(الله يحكم بينكم يوم القيامة فيم كنتم فيه تختلفون) أى الله يقضى بين المؤمنين منكم والكافرين يوم القيامة فيما كنتم تختلفون فيه من أمر الدين ، فيتبين الحق من المبطل .

ونحو الآية قوله : « فَإِذْ لِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ » الآية .

وقصارى ما سلف — ادع إلى شريعتك ، ولا تخص بالدعاء أمة دون أمة ، فكلهم أمتك ، وإنك لعلى طريق واضحة الدلالة تصل بمن اتبعها إلى سبيل السعادة ، فإن عدلوا عن النظر فى الأدلة إلى المراء والتمسك بالعادات وبما وجدوا عليه الآباء

والأجداد ، فدعهم في غيهم يعمهون . فقد أنذرت ، وما عليك إلا البلاغ ، وقل لهم مهددا من حكم يوم القيامة وهو متردد بين جنة ونار وثواب وعقاب : الله يحكم بيننا وبينكم ويتبين الحق من المبطل ويجازى كلا بما يستحق .

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَهُمْ مِنْ شُلْطَانًا
وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ
بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ تُبْشِرُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ (٧٢) .

شرح المفردات

سلطانا : أى حجة وبرهاننا ، نصير : أى ناصر ومعين ، يسطون : أى يبطشون بهم من فرط الغيظ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه يحكم بين عباده يوم القيامة ويجازى كلا من السوء والחסن بما هو له أهل - أعقب هذا ببيان أنه العليم بما يستحقه كل منهم فيقع حكمه بينهم بالعدل ، ثم أرشد إلى أنه على وضوح الدلائل وعظيم النعم عليهم عبدوا غيره مما لم يقيم الدليل على وجوده ، وأنهم مع جهلهم إذا نُبِّهوا إلى الحق وعرضت عليهم المعجزة وتلى عليهم الكتاب الكريم ظهر في وجوههم الغيظ والفضب وهما بالبطش بمن يذكرهم بآياته إنكارا منهم لما خطبوا به ، ثم أبان لهم أن ما ينالهم

من النار التي يفتحمونها بأفعالهم وأقوالهم أعظم مما ينالهم من النعم والغنيظ حين تلاوة هذه الآيات .

الإيضاح

(ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض) أى قد علمت أيها الرسول أن علم الله محيط بما في السموات وما في الأرض لا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وهو حاكم بين خلقه يوم القيامة على علم منه بما عملوه في الدنيا ، فجازى أحسن منهم بإحسانه وللمسيء بإساءته .

(إن ذلك في كتاب) أى إن علمه بذلك في الانوار المحفوظ الذي كتب فيه ربنا قبل أن يخلق ما عو كائن إلى يوم القيامة : ويرى أبو مسلم الأصفهاني أن المراد بالكتاب في مثل هذا الحفظ والضبط الشديد بحيث لا يغيب عنه مثقال ذرة .

(إن ذلك على الله يسير) أى إن علمه تعالى بما في السماء والأرض وكتبه في اللوح المحفوظ والفصل بين عباد يوم القيامة - يسير على الله إذ لا يخفى عليه شيء ولا يتعسر عليه مقدور .

ثم حكى سبحانه بعض أباطيل المشركين وأحوالهم الدالة على سخافة عقولهم فقال :

(ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم) أى ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه مالم ينزل بجواز عبادته حجة وبرهانا من السماء في كتاب من كتبه التي أنزلها إلى رسله ، وما ليس لهم بجواز عبادته علم من ضرورة العقل ، وإنما هو أمر تنقوه عن آبائهم وأسلافهم بغير حجة ولا برهان .

والخلاصة --- ويعبدون من دون الله مالم يقيم دليل من الوحي ولا من العقل على صحة عبادته .

ونحو الآية قوله : « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » .

(وما للظالمين من نصير) أى وليس للظالمين من ينصرهم يوم القيامة فينقذهم من عذاب الله ويدفع عنهم عقابه إذا أراد ذلك .

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر) أى وإذا تتلى على المشركين العابدين من دون الله ما لم ينزل به سلطانا - آيات القرآن الحجج والبينات . بدت على وجوههم أمارات الإنكار بالتجهم والعبوس والبُسور ونحو ذلك مما يدل على الغيظ والحفيظة الكامنة في نفوسهم مما يسمعون منها .

ثم بين مقدار ذلك الغيظ ومبلغ أمره فقال :

(يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) أى هم من شدة حقهم على من يتلونه من المؤمنين يكادون يثبون عليهم ويبطشون بهم ويسطون أيديهم وأستهم بالسوء .

وقصارى ذلك — إنهم قد بلغوا من الجهالة حدا لا ينفع فيه العلاج ولا تنفع فيه البينات والحجج .

ثم ذكر لهم أن هذا الغيظ السكين في نفوسهم ليس بشيء إذا قيس بما سيلاقونه من العذاب يوم القيامة فقال :

(قل أفأنبئكم بشر من ذلكم ؟) أى قل لهم : أستمعون فأخبركم بشر من ذلكم الذى فيكم من الغيظ من التالين للآيات حتى قاربتم أن تسطوا بهم وتمدوا أيديهم وأستكم بالسوء ؟ .

ثم أجاب عن هذا الاستفهام فقال :

(النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) أى النار وعذابها أشق وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا ومما تتلون منهم إن نتم بإرادتكم واختياركم .

(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى وبئس النار موثلاً ومقاماً لهؤلاء المشركين بالله .
ونحو الآية قوله : « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

يَأْيُهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْأَلُهمُ الذُّبَابُ شَيْئًا
لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ
قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ
النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ
تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) .

شرح المفردات

ضرب : أى جعل ، والمثل والمثّل : الشبه ، لا يستنقذوه : أى لا يقدرُوا
على استنقاذه ، ماقدروا الله : أى ما عظموه ، عزيز : أى غالب على جميع الأشياء ،
يصطفى : أى يختار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر في سلف أنهم يعبدون من دون الله مالا حجة لهم عليه من الوحي
ولا دليل عليه من العقل - أردف هذا بما يدل على إبطاله ويؤكد جهلهم بمقام
الالهية وما ينبغى أن يكون لها من إجلال وتعظيم ، ثم أعقب ذلك ببيان أنه
سبحانه يصطفى من الملائكة والناس لرسالته من يشاء وهو العليم بمن يختار « الله
أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

روى أن الوليد بن المغيرة قال : أنزل عليه الذكر من بيننا ؟ فأنزل الله الآية :
 « اللَّهُ يُصْطَلِفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ » .
 وأخرج الحاكم وصححه عن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « إن الله اصططفى موسى بالكلام وإبراهيم بالخلقة » .

الإيضاح

(يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) أى يأتياها الناس جعل المشركون لى
 أشباها وأندادا وهى الآلهة التى يعبدونها معى . فأنصتوا وتفهموا حال ما مشوهم
 وجمعوهم لى فى عبادتهم إياهم أشباها وأمثالا .

نم بين حال هؤلاء الأشباه والأمثال فقال :

(إن الذين تدعون من دون الله لن يخفوا ذبابا ولو اجتمعوا له) أى لو اجتمع
 جميع ما تعبدون من الأصنام والأوثان على أن يخفوا ذبابة واحدة على صغر حجمها
 وحقارة شأنها ما قدروا وما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

روى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل :
 ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة فليخلقوا شميرة » .

(وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه) أى وإن يسلب الذباب الآلهة
 والأوثان شيئا مما عليها من طيب وما شبهه - لا تستنقذ ذلك منه على ضعفه .

والخلاصة - إنهم عاجزون عن خلق ذباب واحد ، بل أعجب من ذلك أنهم
 عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبهم شيئا مما عليهم من طيب ونحوه .

وفى ذلك إيماء إلى أنهم قد بلغوا غاية الجهالة ، وأشركوا بالله القادر على كل
 شىء آلهتهم من الأصنام والأوثان التى لا تقدر على خلق أحقر المخلوقات وأصغرها
 وهو الذباب ولو اجتمعت له ، ولا تستطيع أن تنتصر منه لو سلبها شيئا .

(ضعف الطالب والمطلوب) أى عجز الطالب وهو الآلهة أن تستنقذ من المطلوب وهو الذباب ما سلبها إياه من الطيب وما أشبهه .

وقصارى هذا — إنه سبحانه وصف هذه الآلهة بما وصف للدلالة على مهانتها وضعفها تقرّيعاً منه لعبدتها من مشركى قريش وكأنه قيل لهم : كيف تجعلون لى مثلاً فى العبادة ، وتشركون معى فيها ما لا قدرة له على خلق ذباب ، وإن أخذ منه الذباب شيئاً لم يقدر أن ينتصر منه ، وأنا الخالق مافى السموات والأرض ومالك جميع ذلك والمحى ما أردت والمميت — إن فاعل ذلك بلغ غاية الجهل وعظيم السفه . ثم زاد هذا الإنكار تأكيداً فقال :

(ماقدروا الله حق قدره) أى ما عظموه حق التعظيم ، إذ عبدوا معه غيره من هذه الأصنام التى لا تقاوم الذباب لضعفها ولا تنتصر منه إن سلبها شيئاً .

(إن الله لقوى عزيز) أى إنه تعالى قوى لا يتعذر عليه شيء ، وبقدرته خلق كل شيء ، عزيز لا يغالب ، لعظمته وسلطانه ، ولا يقدر شيء أن يسلبه من ملكه شيئاً ، وليس كآلهتكم التى تدعونها من دون الله .

ونحو الآية قوله : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وقوله : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » .

وبعد أن ذكر ما يتعلق بالإلهيات ذكر ما يتعلق بالنبوات فقال :

(الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس) أى الله يختار من الملائكة رسلاً يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحى ، ويصطفى من الناس رسلاً يدعون عباده إلى ما يرضيه ويبلغونهم ما نزل عليهم من وحيه إرشاداً لهم وتشريعاً للأحكام التى فيها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم .

(إن الله سميع بصير) أى إنه تعالى سميع لأقوال عباده ، بصير بهم فيعلم من يستحق أن يختار منهم لهذه الرسالة .

(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى يعلم ما كان بين أيدي ملائكته ورسله من قبل أن يخلقهم ، ويعلم ما هو كائن بعد فناءهم .
 وخلاصة ذلك — يعلم مستقبل أحوالهم وماضيها .
 (وإلى الله ترجع الأمور) أى وإليه ترجع الأمور يوم القيامة ، فلا أمر ولا نهى لأحد سواه ، وهو يجازى كلا بما عمل إن خيرا وإن شرا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا
 الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ
 وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ
 الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ
 وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا
 بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) .

شرح المفردات

فى الله : أى فى سبيله . والجهاد كما قال الراغب : هو استفراف الوسع فى مجاهدة العدو ، وهو ثلاثة أضرب :

(أ) مجاهدة العدو الظاهر كالكفار .

(ب) مجاهدة الشيطان .

(ح) مجاهدة النفس والهوى ، وهذه أعظمها ؛ فقد أخرج البيهقي وغيره عن جابر قال : « قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم غزاة فقال : قدتم خير

مقدم ، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل وما الجهاد الأكبر ؟ قال :
مجاهدة العبد هواه .

والمراد بالجهاد هنا : ما يشمل الأنواع الثلاثة ، كما يؤيده ما روى عن الحسن أنه
قرأ الآية وقال : « إن الرجل ليجاهد في الله تعالى وما ضرب بسيف » واجتباكم :
أى اختاركم ، حرج : أى ضيق بتكليفكم ما يشق عليكم ، واعتصموا بالله : أى
استعينوا به وتوكلوا عليه ، مولاكم : أى ناصركم .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم فى الإلهيات ثم فى النبوات - أتبعهما بالكلام فى الشرائع والأحكام .

الايضاح

(يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)
أى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله ، اخضعوا لله وخروا له سجدا واعبدوه بسائر
ما تعبدكم به وافعلوا الخير الذى أمركم بفعله من صلة الأرحام ومكارم الأخلاق ،
لتفلحوا وتفوزوا من ربكم بما تؤمنون من الثواب والرضوان .

(وجاهدوا فى الله حق جهاده) أى وجاهدوا فى سبيل الله جهادا حقا خالصا
لوجهه لاتخشون فيه لومة لائم .

(هو اجتباكم) أى هو اختاركم من سائر الأمم ، وخصكم بأكرم رسول
وأكمل شرع .

(وما جعل عليكم فى الدين من حرج) أى وما جعل عليكم فى الدين الذى
تعبدكم به ضيقا لا يخرج لكم منه ، بل وسع عليكم وجعل لكم من كل ذنب مخصا ،
فرخص لكم فى المضايق ، فالصلاة وهى أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب

في الحضر أربعا وفي السفر تقصر إلى اثنتين ، ويصليها المريض جالسا ، فإن لم يستطع فعلى جنبه ، وأباح النطرحين السفر وحين الإرضاع والحمل والشغل في شق الأعمال ، ولم يوجب علينا الجمعة في المساجد حين السفر أو الخوف من عدو أو سبع أو مطر إلى نحو أولئك ، كما فتح لكم باب التوبة وشرع لكم الكفارات في حقوقه ودفع الدية بدل القصاص إذا رضى الولي .

ونحو الآية قوله سبحانه : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » وقوله : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » وقوله : « رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا » .

(ملة أبيكم إبراهيم) أى ومملنكم هى ملة أبيكم إبراهيم الحنيفية السمحة التى لم مقهورها جنف ولا إشراك .

ونحو الآية قوله تعالى : « قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » الآية .

(هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا) أى إن الله سماكم بامعشر من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم - المسلمين فى الكتب المتقدمة وفى هذا الكتاب .

وخلاصة هذا . إنه تعالى ذكر أنه اختارهم من بين سائر الأمم ، ثم حثهم على اتباع ما جاءهم به الرسول لأنه ملة أبيهم إبراهيم ، ثم نوّه بذكره والثناء عليه فى كتب الأنبياء قبله وفى القرآن .

(ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) أى إنكم جمعكم هكذا أمة وسطا عدولا مشهودا بعد التمسك بين الأمم ، ليكون محمد صلى الله عليه وسلم شهيدا عليكم يوم القيامة بأنه قد باغىكم ما أرسل به إليكم ، وتكونوا شهداء على الناس بأن الرسل قد باغىهم ما أرسلوا به إليهم .

وإنما قبلت شهادتهم على الناس لسائر الأنبياء ، لأنهم لم يفرقوا بين أحد منهم وعلموا أخبارهم من كتابهم على لسان نبيهم ، ولا اعتراف سائر الأمم يومئذ بفضلهم على سواهم ، وقد تقدم ذكر هذا في سورة الأنعام عند قوله : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » الآية .

ولما نبيهم لأداء الشهادة على الأمم جميعا طلب منهم دوام عبادته والاعتصام بحبله المتين فقال :

(فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ) أى فقابلوا هذه النعم العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم بطاعته فيما أوجب وترك ما حرم . ومن أهم ذلك إقامة الصلاة التى هى صلة بينكم وبين ربكم ، وإيتاء الزكاة التى هى طهرة أبدانكم ، وصلة ما بينكم وبين إخوانكم ، واستعينوا بالله فى جميع أموركم ، وهو ناصركم على من يعادىكم .

ثم علل الاعتصام به بقوله :

(فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) أى إن من تولاه كفاه كل ما أمه ، وإذا نصر أحدا أعلاه على كل من خصمه ، إذ لا ناصر فى الحقيقة سواه ولا ولى غيره ، فله الحمد وهو رب العالمين .

خلاصة ما تضمنته السورة من الحكم والأحكام

(١) وصف حال يوم القيامة وما فيه من شدائد وأهوال تشيب منها الولدان .

(٢) جدال عبدة الأصنام والأوثان بلا حجة ولا برهان .

(٣) إثبات البعث وإقامة الأدلة عليه .

(٤) وصف المنافقين المذبذبين فى دينهم وعدم ثباتهم على حال واحدة .

(٥) ما أعد الله لعباده المؤمنين من الثواب المقيم فى جنات النعيم .

- (٦) بيان أن الله ناصر نبيه ومظهر دينه على سائر الأديان .
- (٧) بيان أن الله يحكم يوم القيامة بين عباده من أرباب الديانات المختلفة ويجازي كلا بما يستحق .
- (٨) إمامة الأدلة على وجود خالق السموات والأرض وبيان أن العالم كله خاضع لقدرته .
- (٩) أمر المؤمنين بقتال المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم ، وبيان أن هذا القتال لا بد منه لنصرة الحق في كل زمان ومكان وأن الله ينصر من يدافع عنه .
- (١٠) تسلية الرسول على ما يناله من أذى قومه وأنهم ليسوا بدعا في الأمم ، فكثير ممن قبلهم كذبوا رسالهم ثم كانت العاقبة لمتقين ، وأهلك الله القوم الظالمين ، والعبرة مثلة أمامهم في حزمهم وترحالهم .
- (١١) بيان أن المفسدين يلقون الشبهات على الحق ليزلزلوا عقائد المؤمنين ، لكنها لا تثبت أن تزول وينكشف نور الحق ويزيل ظلام الباطل .
- (١٢) الثواب على الهجرة لله ورسوله سواء قتل المهاجر أو مات .
- (١٣) وصف حال الكافرين إذا تلى عليهم القرآن ، بما يظهر على وجوههم من أمارات الغضب .
- (١٤) بيان أن الله يرسل رسلا من الملائكة ورسلا من البشر وأن الله عليم بمن يصلح لهذه الرسالة .
- (١٥) أمر المؤمنين بدوام الصلاة والزكاة وفعل الخيرات والجهاد حق الجهاد في سبيل الحق .
- (١٦) بيان أن الدين يسر لا عسر ، وأنه كلمة إبراهيم سمح لاشدة فيه .

(١٧) يمان أن الرسول شهيد على أمته يوم القيامة وأن هذه الأمة تشهد على الأمم السالفة بأن رسالهم قد بلغهم شرائع الله وما قصرُوا في ذلك .
اللهم ألهمنا الحق واهدنا سبيل الرشاد وتقبل أعمالنا ، إنك أنت السميع المجيب .
قد انتهى تفسير هذا الجزء في اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة وألف بعد الهجرة بمدينة حلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية ، وفقنا الله لإتمام تفسير كتابه الكريم .

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٣	في الحديث: بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول وهن من تلادى .
٦	طعن المشركون في نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم بأمرين
٧	طلب المشركون من النبي صلى الله عليه وسلم آية أخرى غير القرآن .
١١	فضل القرآن .
١٣	كانت الأمم السابقة تعترف بظلمها حين إهلاكها .
١٤	فساد المطاعن التي وجهوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم .
١١	السموات والأرض لم تخلقا عبثا فلا بد من الحساب والجزاء .
١٩	لو كان في السموات والأرض إلهان لفسدتا .
٢٠	الكتب السماوية جميعا جاءت بوحدانية الله وطلب عبادته .
٢١	الملائكة عباد مكرمون يسمحون الليل والنهار لا يفترون .
٢٤	الأدلة على وجود الله .
٢٩	الدنيا ما خلقت للخلود والدوام .
٣٠	الابتلاء والفتنة تكون بالخير والشر .
٣٢	جبل الإنسان على حب العجلة .
٣٤	تأتي الساعة بغتة وهم لا يشعرون .
٣٩	يوم القيامة يدعو المشركون على أنفسهم بالويل والثبور وعظائم الأمور .
٤١	أوصاف المتقين .

المبحث	الصفحة
حجاج إبراهيم لأبيه وقومه ودعوتهم إلى التوحيد .	٤٢
احتجاج قومه بالتقليد .	٤٤
كسر إبراهيم عليه السلام للأصنام .	٤٦
رجوع قوم إبراهيم على أنفسهم باللامه .	٤٧
اتفاق قوم إبراهيم على إحراق إبراهيم .	٥١
النم التي أفاض الله بها على إبراهيم .	٥٣
النم التي أسبغها على لوط .	٥٤
ما أنعم الله به على داود وسليمان .	٥٦
قضاء داود وسليمان في الحرث إذ نفشت فيه غم القوم .	٥٧
نعم الله على داود عليه السلام .	٥٨
نعم الله على سليمان عليه السلام .	٦١
ما أحيطت به قصة أيوب من العجائب والغرائب .	٦٣
نداء يونس عليه السلام لربه في الظلمات واستجابة الله له .	٦٦
دعاء زكريا لربه واستجابته لدعوته .	٦٨
لب الدين عند الله واحد واختلاف الأديان في التفاصيل .	٧٣
الأصنام وعابدها في النار، وحكمة ذلك .	٧٤
أحوال أهل النار وما يلاقونه من الأهوال .	٧٥
ما كتب لأهل السعادة في الجنة .	٧٦
صلاح الأمة يقوم على أربعة عمد .	٧٨
الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين .	٨٣
ما اشتملت عليه سورة الحج من المباحث .	٨٥
أحوال يوم القيامة .	٨٦
ذم المجادل بغير علم .	

الصفحة	المبحث
٨٨	مراتب الخلق والاستدلال بها على البعث .
٩١	المجادل بلا عقل صحيح ولا نقل صريح .
٩٤	من الناس المذبذب المضطرب في دينه .
٩٧	إثبات نصر الرسول والمباغة في ذلك بما لا مزيد عليه .
٩٨	القرآن هاد إلى سواء السبيل .
	الأديان ستة خمسة للشيطان وواحد للرحمن .
٩٩	السجود ضربان اختياري وتسخيرى .
١٠٠	من يهينه الله فلا مكرم له .
١٠٢	جزاء الكافرين يوم القيامة .
١٠٣	جزاء المؤمنين يومئذ .
١٠٥	جزاء الصادق عن البيت الحرام .
١٠٦	تأنيب من يصد عنه من المشركين .
١٠٨	سبب الأمر بزيارة البيت الحرام .
١٠٩	ذبح الأنعام وأكلها حلال إلا ما حرم .
١١٠	من أشرك بالله فقد أهلك نفسه وكان كمن سقط من السماء فتمخضفه الطير .
١١٢	الذبح وإراقة الدماء قربة لله ليس بخاص بهذه الأمة .
١١٣	علامات الحبنتين .
١١٤	الهدايا من شعائر الله ودليل تقواه .
١١٧	وعد الله رسوله والمؤمنين بالنصر على المشركين .
١١٩	تحريض المؤمنين على القتال وبيان أن به انتظام أمر الجماعات .
١٢١	تسليية الرسول على ما يرى من قومه من الأذى .
١٢٤	كان المشركون يستهزئون بالعذاب فيستعجلونه .

الصفحة	المبحث
١٢٥	سنة الله إهلاك الظالمين ولو بعد حين .
١٢٦	وعد الله للمعتقين ووعيده للكافرين .
١٢٨	إلقاء المشركين الشبه والأوهام فيما يقرأ من القرآن .
١٢٩	ما يفعله القساوسة والمبشرون الآن في البلاد الإسلامية .
١٣١	هداية الله لعباده المؤمنين إلى الصراط المستقيم .
١٣٣	المقتول في سبيل الله والمهاجر إعزازا لدين الله في الأجر سواء .
١٣٥	الله قدير على نصر عباده المؤمنين .
١٣٦	سابع نعمه على عباده المؤمنين .
١٣٨	لكل أمة منسك وشريعة خاصة بها .
١٤١	النهي على عبادة الأوثان والأصنام .
١٤٢	لا دليل على صحة عبادة الأصنام من عقل ولا نقل .
١٤٣	كانت إذا تليت آيات القرآن على المشركين ظهر على وجوههم آثار الغيظ والألم .
١٤٥	الأصنام لا تستطيع خلق الذباب ولا تدفع عن نفسها ما يسلب منها .
١٤٧	الجهاد ضروب .
١٤٨	الدين يسر لا عسر .
١٤٩	الرسول صلى الله عليه وسلم شهيد عليكم وأنتم شهداء على الناس .